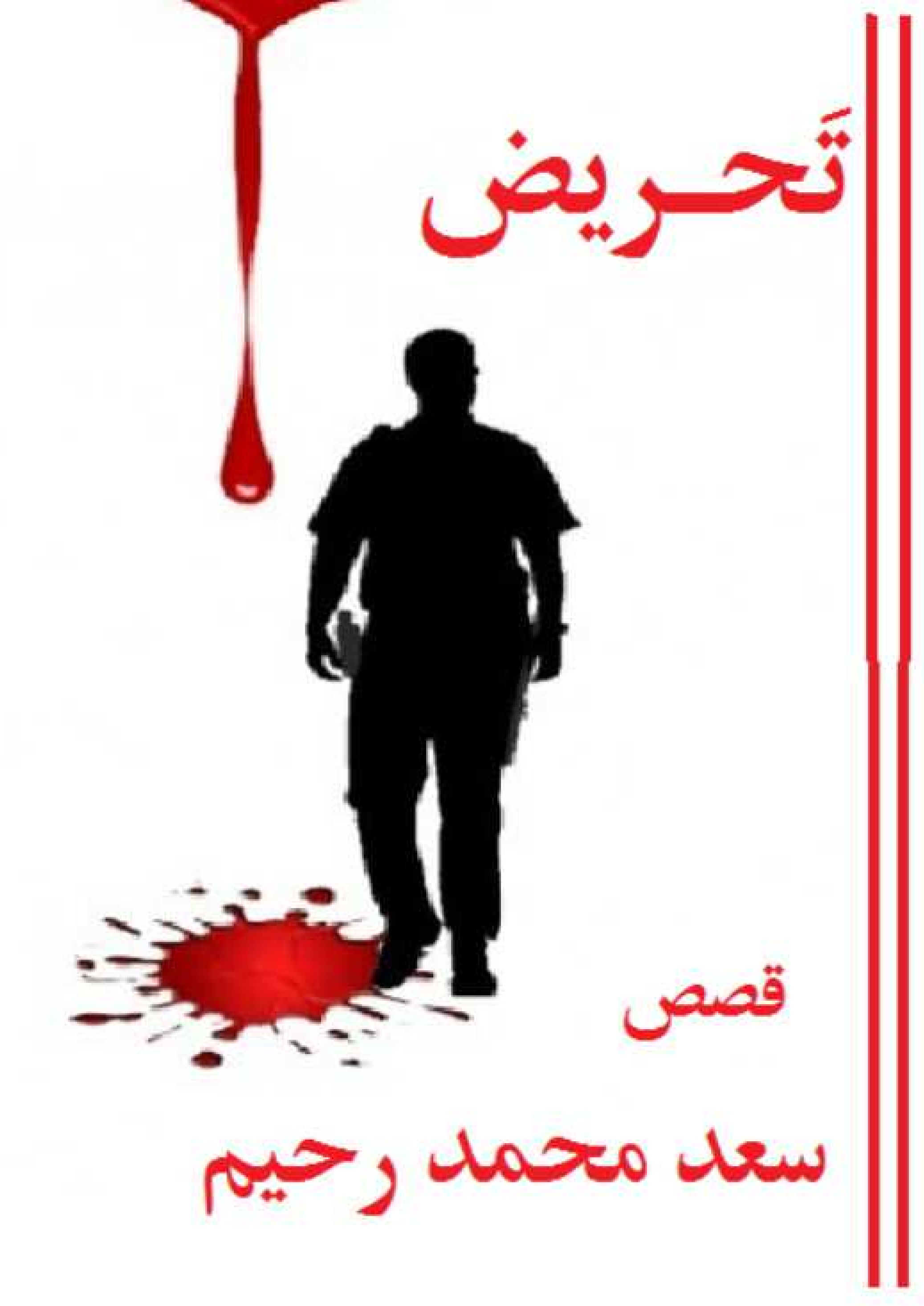

تَحـريض
قصص
سعد محمد رحيم

تحريض



البريد الالكتروني: E-mail :unecriv@net.sy

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.org

❑❑

سعد محمد رحيم

تحريض

.قصص.

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق - 2004

المحطات

1. محطة الشروق

طلع الولد الأسمر من بين الأشجار المستكينة واختلاجة الصبح.. صدمه اللغط المنبعث من قلب الزحام فسرت القشعريرة في دمه الغض، والنور الخام ينثال.. يغسل الأشكال، ويفضض نضارة ألوانها.. وقف متردداً، رافعاً ناظريه إلى العقربين الأبنوسيين اللامعين في ساعة الحائط الكبيرة أعلى بناية المحطة.. لم يستطع أن يحدد الوقت، لكنه عرف أن القطار لم يأتِ بعد.

صاحَ به رجل:

ـ يا ولد.

تقدم بخطى متعثرة..

ـ بكم تبيع البسكويت؟.

قال متلعثماً:

ـ بعشرة فلوس.

أخذ قطعة النقد المعدنية ورفعها إلى شفتيه وباسها، ثم ألصقها بجبينه العريض قبل أن يدسها في جيب دشداشته مثلما أوصته أمه.

أحاط به بعض الصبية .. كانوا أنيقين ونظيفين..

داروا حوله قبل أن ينطلقوا ضاحكين مزهوين.

جلس على دكة إسمنتية محكوماً بالدهشة والوجل والذهول، واضعاً الصينية الصغيرة على فخذيه الدقيقين، ومرسلاً عينين قلقتين إلى الوجوه.. لفت نظره رجلٌ بسروال قصير، وسدارة كاكية في مقدمتها قرص معدني لاصف.. سأل فتاة تصغره قليلاً اقتربت لتشتري منه :

ـ أهذا سائق القطار؟

ـ من؟.. هذا؟! يا لك من غبي.. هذا شرطي.

تسمرت نظراته على الشرطي الذي أقبل نحوه.. قبض على أعصابه الخوف وتنملت رجلاه..

"عندما كان الظلام يختنق تهمس أمه في أذنه:

ـ نم ، و إلاّ سيأتي الشرطي ويحبسك.".

وقف الشرطي عند رأسه مثل فزاعة هائلة:

ـ ما أسمك؟.

أمسكت بحنجرته غصة معذبة.. ضحك الشرطي والتقط علبة بسكويت وابتعد .. فارت الدموع بين صدغيه، وفكر أن يهرب.

ـ " أين أبي؟.

ـ موقوف في مركز الشرطة".

اختفى الشرطي خلف حاجز خشبي يتعامد مع بناية المحطة، وكانت الشمس قد ارتفعت.

استجار الولد الأسمر من لسعة القيظ بظل شجيرة يوكالبتوس يافعة.. أنزل صينية الأشياء على الأرض، ومسح العرق عن وجهه وجبينه بباطن كفه..ارتفعت الشمس أكثر لتجفف ريقه.. ترى أين يوجد الماء؟ لمح صنبوراً غليظاً بمفتاح دائري أحمر.

"قالت له أمه:

ـ في القطار هناك صنبور ماء".

أراد أن يجرب فتح صنبور الماء غير أنه لم يجرؤ.. جلس على الأرض.. مدّ يده متوجساً إلى جيبه ليتحسس قطع النقد.. انفرج فمه.. ربما ابتسم، شاعراً وكأن كتلة هشة من الثلج قد تهشمت في صدره:

ـ بكم .. البالون؟.

ـ بعشرة فلوس.

ـ سعره في السوق خمسة فلوس.

لم يحر جواباً .. أعطاه الرجل خمسة فلوس وأخذ بالوناً وراح ينفخ فيه .. كان الصبي الذي جاء بصحبته ينط حوله:

ـ البالون .. البالون.

ـ حسنٌ.. إنه ليس مثقوباً.

ودَّ الولد الأسمر لو يستطيع قراءة الساعة، وكاد يسأل رجلاً عابراً عن الوقت لكنه تردد وظل صامتاً.

قال في دخيلته (عندما أكبر سأتعلم قراءة الساعة).

أحس أن بينه وبين هذه الزحام الجليل والألوان الضاحكة فراغاً هائلاً يعجز عن تخطيه.. هو لا يعرفُ أحداً في هذا المكان، ولا أحد يعرفه، وما يصله بهؤلاء هو أنهم جميعاً ينتظرون القطار.. ولكن أين هو القطار؟ وكيف هو شكله؟.

" القطار شيء طويل ضخم يسير على السكة".

على حصان أصهب جاء شرطي يحمل حقيبة.. شدَّ اللجام وقفز، ثم ربط حصانه بالعارضة الحديدية للحديقة، وولج غرفةً كان بابها مفتوحاً. وبعد دقائق خرج وامتطى حصانه برشاقة وعاد في الطريق نفسها التي أتى منها.

فكر الولد الأسمر فيما إذا كان هناك كثيرٌ من الشرطة في هذا العالم. وكان قلبه يخفق بإيقاع عنيف،مكتوم. وعجب لأن أمه لم تخبره عن وجود الشرطة في المحطة.

" هو لم ير قطاراً قط، وأبوه قال:

ـ هذا الولد ينبغي أن يدخل المدرسة.. لن يكون بائعاً جوالاً بين المحطات مثل أبيه أبداً".

وحين أودع أبوه السجن، قالت أمه:

" ـ ستكون بائعاً جوالاً مثل أبيك".

وعاط القطار.. انبثقَ صوته المهول ليفتق عذرية طفولته.. اختضت أعضاؤه، وانبجست الرهبة من قرارته.. طفحت على سواد عينيه... رفع الصينية ... حاول الوقوف.. في البدء خذلته رجلاه.. حركهما .. حاصره الهدير ـ قعقعة العجلات الخرافية على السكة النحيفة.

وجثم الهيكل العاتي المهيب، الملغز الذي سيقتنصه من حجر أمه ليصله بالدنيا.

"ـ سيجعلك القطار تخبر الحياة وتتعلم".

وبدا له القطار فاتناً.. في فتنته ما يبعث على الخوف. وكبيراً، أكبر مما تصورت مخيلته. وصارماً، وهو يخلخل سكون الزحام.

هبطـت وجـوه، وتسـلقت سـلالم العربـات أجسـاد بسـراويل ودشداشـات وثيـاب ملونـة وعبـاءات سـود.. لـم يستطع أن يفكـر بوضـوح.. كـان مقـوداً تحـت سطوة دافـع خفـي كأنـه فـي دوامـة حلـم ثقيـل.. تلفـت حواليـه .. وجـد الشرطي الذي أخذ منه البسكويت واقفاً يراقب المسافرين.

كانت أمه قد حذرته:

"ـ لا تتـأخر، فالقطـار لا يلبـث فـي المحطـة أكثـر مـن دقيقتين"..

لم يقدر أن يتثبت من حقيقة مشاعره..

أهـو خـائف أم لا ؟... كـان آخـر الصـاعدين وقـد اشـتد عليه عطشه.

قالت أمه:

" اصـعد القطـار. وبعد محطتين انـزل واصـعد القطـار المعاكس.. ستكون في البيت بعد الظهر".

مشى في الممر بين المقاعد وعيناه تجوسان المكـان.. سمع أحدهم يناديه:

ـ يا ولد.

نقّل نظراتـه حـائراً يبحـث عـن الرجـل الـذي نـاداه.. إذ ذاك تحرك القطار إلى المجهول.

***

2. محطة الشقائق

توقف القطار .. نـزل الفتـى المراهق.. كانت تلك أبعد محطة يصل إليها منذ خمس سنين.

لبث واقفاً وهو يرسل نظراتـه الكاشفة فـي الأرجـاء.. لقد خبر محطات كثيرة... هندسة الأشياء هـي ذاتهـا كمـا فـي كـل مـرة ـ النوافذ الخضـر، والعقـارب الأبنوسـية لسـاعة

الحائط الكبيرة، ومظلة الحارس، وحديقة الأراجيح ـ غير أن شيئاً ما، هنا، كان مختلفاً.. مختلفاً تماماً.. حاول أن يلتقطه ويحدده فلم يستطع. وعندما تحرك القطار كان قريباً جداً منه..أحس بأنفاسه اللاهثة وهو يدحرج عجلاته باتجاه محطة أخرى في أعماق أحلامه التي لم تتضح أبعادها بعد.

ألفى نفسه في الدوامة اللطيفة التي أحدثها الهواء المخلخل في العربات الأخيرة وهي تسرع.. بقي ثابتاً إلاّ خصلات شعره الطويل التي اهتزت لتسقط على عينيه.. أزاحها وعبر التقاطعات المعقدة للسكك إلى الجهة الثانية...

سأل فتاةً تجلس على دكة إسمنتية .. عيناها واسعتان مثل الساعة التي يحلم في شرائها:

ـ أين نحن؟.

كركرت الفتاة بعذوبة.. بتلك العذوبة التي ليس بمقدور أمثاله تحملها، وقالت:

ـ في هذه الدنيا.

تولاه الخجل.. خجل كاسح صعّد دماً غزيراً إلى وجنتيه السمراوين، أحاقَ ثمة بحَبِّ الشباب وألهبه.

رفع نظره عن الفتاة، وتملى السهل، المعشوشب المتوغل حتى أخدود بعيد.. أدهشته كثافة الشقائق بكوؤسها الصغيرة الحُمر وهي تتمايل بين نباتات الخبيز..

قال:

ـ ما أجملها من أزهار.

كانت تحدجه بإشفاق .. قالت:

ـ ماذا تبيع؟.

ـ ها ...؟.

حرر رقبته من الحزام الجلدي وأنزل صندوق بضاعته.

ـ بكم قطعة العلك؟.

ـ خذي واحدة.

ومنذ تلك اللحظة.. مذ راح يراقب حنكها وهي تلوك العلك بغنج، تكسرت في قاع نفسه قشرة متقرنة، وتفجر بخار حيوي ساخن ومدوخ سيغلّق خرائب ذاكرته حتى وقت طويل.. طويل..

قالت: ماذا دهاك؟.

قال: ماذا تفعلين هنا ؟.

قالت: لم يأتِ أبي بعد.

قال: أبي مات في السنة الماضية، بعد أسبوع من خروجه من السجن.

***

في تلك الليلة استلقى الفتى المراهق بلا غطاء.. المقعد الخشبي الطويل هيّج أحلامه.. كان بردانًا ويقظاً، ولا أحد غيره في قاعةِ انتظار المحطة.

ظل يحدق في الفراغ المعتم. ومن هناك انسل طيف تمارا الدافئ.. كان قريباً وقصياً في آن معاً.. غامضاً وساحراً ولا معقولاً مسَّ برفق كينونته. أو ذلك الجزء العسير على السبر من كينونته.

" كانا يأكلان البسكويت حين جاء أبوها بالعربة المحملة بقناني الـ"بيبسي كولا".. رمقه الشيخ بارتياب، ولم يقل شيئاً.. قالت، وهي تناوله قنينة مثلجة.

ـ اشرب .. الـ"بيبسي" مقابل العلك والبسكويت.

تحاشى نظرات الشيخ المستفهمة الذي فضل الصمت، وشرب السائل البارد اللاذع بمتعة ..

قال : سأنام الليلة في المحطة.

قالت: أنت أحمق..ستموت من البرد.

لا يـدري متــي نــام.. أيقظــه قطــار الفجـر.. رأى آخـر المسـافرين وهـو يـذوب فـي الظلمـة الشـفيفة .. قـال لحـارس المحطة:

ـ سآتي بعد قليل.. صندوقي معك.

وقبـل أن يعتـرض الحـارس احتـواه الممـر المتـرب بـين الشقائق ليمضي حتى حافة الأخدود البعيد.

وقف يتأمـل النهـر الصـغير فـي القـاع، والنـور يشـهق.. رمـى حجـراً، مسـخراً قوتـه كلهـا، غيـر أنـه لـم يصـل إلـى الماء... قال:

ـ إنه بعيد.. بعيد.

وقفل راجعاً..

كـان الشـيخ هنـاك، أمـام عربتـه.. ودَّ لـو يسـأله عـن تمـارا.. كـان ذلـك مسـتحيلاً، بيـد أنـه لـم يسـأل نفسـه لِمَ كـان ذلك مستحيلاً.. انكفأ في الجهة المقابلة وانتظر..

جـاء القطـار ولـم تجـيء تمـارا، وكـان عليـه أن يحمـل صندوقه ويعود، فأمه ـ لا شك ـ قلقة عليه الآن.

***

بعد ساعة قضاها في الحمام، خـرج تحيطـه سـحابة مـن بهاء غمرته بالسرور وهو يواجه المرآة، قال.

ـ قد لا أستقل القطار النازل ليلاً فلا تقلقي.

قالت : أخشى...

قال: ماذا؟

قالت: لا شيء.

وكانـت أمـه حـائرة.. بحثـت عمّـا يمكـن أن يُقـال، ولكـن الفتى المراهق تركها وهي ما تـزال فـي حيرتهـا تبحـث عمّـا يمكن أن يُقال.

وصـل محطـة أشـواقه عصـراً، مضـطرباً، متألقاً..وجـد

الشيخ يفتح قناني المشروبات.. خيل إليه أن الشيخ لمحه، غير أنه تشاغل عنه بتلبية طلبات المسافرين المزدحمين حوله.. تساءل عما إذا كان الشيخ حانقاً، أو حاقداً عليه.

ـ ها قد جئت ثانية.

فوجئ وارتبك ولم يلتفت .. كانت وراءه، وكان هو مأخوذاً وهشاً. وشعر بجسمه مثل كتلة من رماد، وبقيت أصابعه وحدها محتفظة بالقوة، تضغط على أطراف الصندوق المعلّق برقبته بلا طائل، وهي الطرية الطازجة حد الذهول ..كانت تضحك حين نطّت مقتحمة قوس ناظريه..

ـ لماذا لا تصيح على بضاعتك؟.

لم يأبه لسخريتها.. كان فقط يتعذب لأنها فاتنة وعصيّة.. كانت في مكان ما خارج حدوده، وكان يحدس أنه لن يعرف الطريق إليها أبداً.

ـ لماذا لا تساعدين أبا....

الحرف الأخير تلاشى في هباء توقه، وضحكت .. ضحكت:

ـ أنا حرة.

وتمنى لو كان هو الآخر حراً مثلها.. على الأقل ساعة واحدة يقول خلالها ما يشاء.

ـ أريد قطعة علك.

أخذت قطعة علك قبل أن ينطق هو.. هو لم ينطق.. صاح الشيخ:

ـ تمارا..

ـ حالاً بابا..

وقبل أن تلحق بأبيها الذي راح يدفع عربته مبتعداً، حدقت في عيني الفتى المراهق، وأخرجت له لسانها

وقالت:

ـ أنت أحمق ومسكين.

تطاير شعرها الطويل وهي تركض.. تتقافز في ركضها .. وكان هو يائساً ومستفزاً.. ينظر إلى جسدها الآسر المتموج ولا يريم.

**

في كل مرة يقرر العودة إليها تقول لـه أمه:

ـ حذارِ.

بيد أن حافزاً قدرياً قاهراً يوجهه إلى تلك المحطة الواقعة على نقطة اعتباطية من امتدادات غربته، لأن تمارا بهياج وجاذبية حضورها ربما تنتظر آسفة.. هكذا يحشد الفتى المراهق مسوغات قناعته أو أوهامه،ويستقل القطار الصاعد إلى جهة الشقائق الرهيفة المتمنعة في عينيها. وكانت هي تلعب .. تدنو ليتراجع هو إلى ذاته القصية ضئيلاً، محمّلاً بالهم والخيبة والتساؤلات. وتفر تاركة إياه مطوّحاً في قرارة عجزه وحرمانه.

ذات ظهيرة، وسائل كالح حارق ينزُّ في أحشائه هبط من قطاره .. وقف يدير رأسه في الأنحاء "أين تمارا؟".. بعد ساعة تحت الشمس المشتعلة رآها، إلاّ أن قطار الوقود سرعان ما غيّبها .. كانت في الطرف الآخر تضحك، ومن بين الفجوات التي تتركها عربات البترول المتعاقبة راح يعاينها.. كانت تختفي خلف كتلة مرعبة من نار في الكمون ثم تظهر كأنها كائنة في عالم مغاير أكثر صحواً وغموضاً لتختفي كرّة أخرى..وهكذا.. يسير القطار وئيداً، يجرجر عرباته الملطخة بالسواد وهي تظهر وتختفي .

وعندما انزاح القطار عن نطاق رؤيته كانت ما تزال تضحك.

اقترب منها وقال:

كيف حالكِ تمارا؟

تلاشت ضحكتها، وحلقت بنظرتها في فضاء وجهه الطفولي.

ـ كم عمرك؟.

سألته ، فأجابها ببراءة:

ـ خمسة عشر عاماً.

لوت رأسها فتساقط شعرها الوفير على كتفها، وانحدر حتى مرتقى النهد الأيسر إذ يضغط مع قرينه على ثوبها السماوي الهفهاف وفغرت فاها.

ـ خمسة عشر عاماً !! اسم الله عليك.

وضجت بالكركرة.

ـ أتدري كم هو عمري أيها الشقي؟ اثنتان وعشرون سنة.

ولطمته على كتفه وراحت تجري.

أيقن أنه وحيد في الشرَك، والدنيا تتقوض حوله، وهي تنأى بقوة نزقها إلى ما وراء مجاله الرملي المقفر.

اقترب منه حارس المحطة وقال:

ـ مجنون أنت إن كنت تفكر بها.

بوغتَ، فحرك رأسه بلا معنى.

ـ مجنون من يعشق امرأة مجنونة .

أنزل صندوقه وتركه على الأرض،ومشى متمهلاً في الجوار.. راعه أن يجد أزهار الشقائق ذابلة، والأعشاب مداهمه بالاصفرار.

دخل المرحاض وهو قانط، وخرج يرشح عرقاً.. كان دبقاً ومستنزفاً.فهناك، بين الجدران النتنة المسودة بالكتابات البذيئة استحضر جسد تمارا في مخيلته..

استحضره حاراً هائجاً ومتطلباً، وكان يحاول أن يرد لنفسه اعتبارها .. هكذا!..

وفي الليل ركب القطار النازل وهو مترع بالبكاء.

***

3. محطة الرغبة:

الريحُ لاذعة، والأفق أحمرٌ متوهج، والغيوم تتفرق وتلتحم. أما خطوط السكة الحديد فتشكيل محيّر لم يستطع الرجل النحيل ـ البائع الجوال في القطارات ـ فهم تشابكها منذ عشرين سنة.

إنه ينتظر كالعادة.. قال لحارس المحطة:

ـ أنا دائماً انتظر.

قال الحارس:

ـ كلنا ننتظر .. من لا ينتظر شيئاً ينتظر الموت. أما الموتى فينتظرون يوم الحساب.

وعندما أطلق القطار زفرته الأخيرة كان هو ضجراً مضعضعاً بعد أن تمدد على ظهره طوال ساعتين بعينين مفتوحتين في قاعة انتظار المحطة.

وكان يهم بالصعود حاملاً صندوقه الفارغ حينما هبطت هي.. كانت تحمل أشياء كثيرة.. أكياس وعلب ومجلات.. التقت عيونهما .. قالت وكأنها تعرفه منذ زمن بعيد:

ـ أحمل عني.

لم يتردد .. حمل في صندوقه أشياءها وتبعها.

كان الأفق يزداد احمراراً حين عوى القطار ومضى.

في تلك الليلة خبر الرجل النحيل طعم الأنثى للمرة الأولى .. كان متوتراً، وكانت هائلة.

في البدء طلب كأس ماء.. دعته للدخول.

ـ كما ترى، أنا وحيدة.

وبعد ساعة عرضت عليه أن يعمل عندها فوافق من دون أن يعرف أي عمل تريده أن يقوم به.

أعدت طعام العشاء.. الأطباق كلها كان فيها لحم..أكل بنهم وهي تراقبه، وإذ ذاك سقط مطر غزير وانقطع التيار الكهربائي.. راحت تتلمس في الظلام.. أحس بأنفاسها قريبة منه وكاوية، ولمّا دوى الرعد طوقته بذراعيها العاريتين.

همست: أنا خائفة.

وكان هو خائفاً .. أي شيطان وأية متاهة؟ قادته في الظلام إلى غرفة النوم.. كانت تعرف الطريق، وكان هو كالأعمى.. وبقي المطر ينهمر طوال الليل.

**

لم يجرؤ أن يسألها من أين يأتيها هذا المال كله؟

.. كانت محصنة ومنيعة ضد الأسئلة.. حمل فأساً ـ وهو الذي لم يحمل فأساً إلاّ في النادر ـ ليشذب لها أشجار الحديقة الخلفية لبيتها الفاره.. كانت أشبه ما تكون بالغابة، وقد أصيب برضوض، وكاد يقطع أصابعه.

بعد أسبوع أحس أن الهشيم الأسود في دخيلته قد احترق، وأن الدم الفاسد قد خرج منه، وأن للحياة مذاقاً عجيباً لم يجربه من قبل.

فكر أنه شيء كالحلم.. قال في سره؛ "إن هذه هي السعادة، ولا يمكن للمرء أن يمنّي النفس بعيش أعظم من هذا".

كان مشبعاً ومفتوناً ولحظاته ممتلئة .. يطارد توجسه ليواريه..توجسه من أنها ربما طلبت منه أن يغادر جنتها.. الخيط العكر الوحيد في فضائه المصفّى.

تولاه شعور، كما لو أنه أُنتشل من فراغ.. من سديم الجفاف.. من الطريق الجرداء المستقيمة التي لا تؤدي إلاّ إلى الموت مباشرة.. أدرك أنه دخل منطقة اللامعقول حيث العذوبة والخمول اللذيذ والرواء والرضا.

وكلما صعّد تفكيره هكذا ليحتوي هذا العالم البكر السعيد الرائق الذي ولجه بالمصادفة أو بالحظ الذي لا يستيقظ سوى مرة واحدة في العمر، تردد نداء معذب من ركن خفي في عقله من أن صيرورته العظيمة هذه ليست منطقية، وليست مسوّغة، ولا يمكن أن تكون إلاّ وهماً مؤقتاً سيتبدد حتماً نتيجة زلزال سيقع، لا محالة، في أية لحظة.

ودَّ لو يقبض على لحظته الكائنة، وأن يتشرنق داخلها، وأن يثبتها، أو يجعلها تمضي هكذا، حارة، مشبعة، مكتفية بذاتها، وأزلية.. خارج الزمن، خارج المنطق، خارج المعقول.. فوق الكينونة، وفوق الحلم وفوق الوجود.

**

قالت له: تكلم.

قال: عمَّ ؟

قالت: عن النساء.

قال: أمي ماتت السنة الماضية.

قالت: لا أحب التحدث عن الموتى.

قال: عمّن أتحدث إذن.

قالت: كم أنت بريء؟

لم يفهم.. اتسع بياض عينيه فأطرق وكان حائراً، وأخذت المرأة تدخن، ثم قامت لتجلب القنينة ذات السائل الأحمر.. صبت منها في كأس وناولته:

ـ اشرب.

ـ لم احتمل طعمه في المرة السابقة.

ـ أمك ماتت مبكرة.. أتساءل إنْ كانت فطمتك؟

استشعر نبرة السخرية في صوتها فامتلأ بالمهانة والقلق.. لكأنها ملّته ولم تعد بحاجة إليه.. شبعت منه وستلقيه عاجلاً إلى عرض الطريق.. هذا الخاطر المداهم جعله ينتزع الكأس من يدها، ويفرغ السائل الحارق في جوفه.

قالت بتهكم:

ـ أنت تثير الشفقة والضحك.

لم يفهم.. كرع كأساً أخرى.. كان يقاوم حرجه وإحساسه بالمهانة والقلق بتناول الشراب.

الكأس الرابعة أيقظت فيه جنية لم يعهدها من قبل، وأبى أن يقرب الكأس الخامسة على الرغم من إلحاحها.

ولما عجزت عن اقناعه استلقت على السرير.. ثنت إحدى ساقيها فتراجع الثوب الوردي القصير الشفاف إلى ما فوق الركبة وراح ينزلق حتى تفجر البياض المشرب بدم النشوة.. ضجت الفاكهة المحتدمة، الملفوفة بقوة الرغبة وهي تتكشف رويداً رويداً بجلالها وجبروتها وتهورها واستفزازيتها، حتى أحس وهو الجالس قبالتها مثل كاهن ذليل بأن الهواء الذي بينهما سيلتهب.. وسيكون الحريق..

كانت ترمقه بإغراء لا يُرد، ثم بدأت تضحك.. استغرقها الضحك طويلاً. وكانت تضحك حين احتضنها.. صفعته .. تسمّر ذاهلاً قبل أن يصفعها هو أيضاً.. قامت وعيناها تتأججان.. صفعها ثانية.. انقلبت على ظهرها.. كان هائجاً.. مزق ثوبها فبان كل شيء، وكانت تصارع.

ـ أنت كلب.

ـ أنتِ عاهرة.

وفي لحظة أدرك أنه مجنون، غير أنَّ عليه أن يصل بجنونه إلى الذروة، وإلاّ ما الفائدة ؟.

وأخيراً ارتعش بقوة نافضاً بقايا آماله على حواف غورها اللاهب.. كان يلهث، وكانت تفح عندما تركها وتراجع إلى الوراء.

ـ أخرج قبل أن استدعي الشرطة.

وكان عليه أن يذعن ويغادر..

دخل جوف الظلمة وهو يفكر؛ " لماذا حصل كل هذا الذي حصل ؟ ".

ولم يفهم.. كانت الريح تهب بعنف، وكان من العسير عليه تحديد اتجاهها.. لم يكن ذلك هاماً.. كان هاجسه أن يلحق بقطار الفجر فأسرع يحث خطاه، متخذاً طريقاً مدلهمة. وما كان متأكداً من أنها الطريق التي ستوصله إلى المحطة.

***

4 ـ محطة الثلج.

تطلع الرجل الكهل من النافذة وصاح:

ـ ياه ..

انتبهت المرأة العجوز وتوقفت عن قضم كسرة الخبز التي في يدها .. التفت إليها وقال:

ـ تعالي، انظري.

ـ ماذا ؟.

ـ الثلج.

ـ الثلج ؟!

ندف الثلج كانت تهبط على الأشجار وخطوط السكة الحديد وكوخ الحارس.. تغطي على رسلها مدى الرؤية .. المرأة العجوز المتوحدة مطت شفتيها ولم تتزحزح عن مقعدها، وعاودت قضم كسرة الخبز.

الرجل الكهل بدا منتشياً، وساورته الرغبة في أن يخرج ويمشي تحت الثلج.

ـ بعد قليل لن يُطاق البرد.

قالت المرأة العجوز ذلك كأنها تُحادث نفسها.

ـ الجو دافئ.

ـ يبدو أنك غريب هنا.. ألديك قرص أسبرين؟.

ـ أتشعرين بالصداع ؟.

ـ سأشعر بالصداع عمّا قريب.

أخرج حبتي أسبرين من علبة خضراء، وناولها للمرأة العجوز وعاد إلى النافذة.

ـ بكم ؟.

ـ مجاناً.

ضحكت المرأة العجوز ولم تعلّق.

كف الثلج.. شعر الرجل الكهل بالأسى والصفاء.. شهق بصوت مسموع وجلس.

ـ أيسقط الثلج هنا، دائماً ؟

ـ ألم تأتِ إلى هذه المحطة من قبل؟

ـ جئتها ذات مرة.. كان ذلك قبل سنوات طويلة، ولم يكن الثلج يسقط.

دخل قاعة انتظار المحطة ثلاثة جنود ببدلات الميدان..اثنان راحا يقهقهان، وكان الثالث مستاءً.

اقترب الجندي المستاء من الرجل الكهل.

ـ أعندك سجائر؟.

ـ عندي.

انـزوى الجنـود الثلاثـة فـي الطـرف الآخـر مـن قاعـة انتظار المحطة وجعلوا يتحدثون ويدخنون.

وضـعت المـرأة العجـوز حبـة أسـبرين علـى لسـانها، وبلعتها.

ـ تعودت بلعها من دون ماء.

لـم ينـبس الرجـل الكهـل. وفجـأة صـمتَ الجنـود الثلاثـة عنـدما دلفـت إلـى القاعـة امـرأة شـابة تحمـل حقيبـة كبيـرة .. أخرج الرجـل الكهل جهـاز مـذياع صـغير مـن جيـب سـترته ليستمع إلى نشرة الأخبار.. وقفت المرأة الشـابة تـنفض عـن قمصلتها الجلدية ما علق بها من قطرات الماء التي هـي مـن بقايا ندف الثلج..سألتها المرأة العجوز:

ـ كيف هو الطقس في الخارج ؟

هزت المرأة الشابة رأسها وقالت:

ـ البرد يخترق العظم.

دنا الرجل الكهل من المرأة الشابة وهمس:

ـ عندي أشياء مهربة.

ـ ماذا ؟!.

ـ قمصان ومواد تجميل وملابس داخلية.

ـ أراها.

تلفت الرجل الكهل حواليه ثم جلس وفتح كيساً كـان فـي صندوقه.

ـ بكم أحمر الشفاه ؟

حـرّك إصـبعي السـبابة والوسـطى.. التقطـت المـرأة الشابة قلم أحمر الشفاه من داخل الكيس ودسته فـي حقيبتهـا اليدوية، وأخرجت دينارين أعطتهما للرجل الكهل.

كركرت المرأة العجوز وقالت:
ـ الظاهر، أنك خطير.

انزعج الرجل الكهل وقام لينظر من النافذة .. جاءت المرأة العجوز ووقفت إلى جانبه.

ـ أزعلت؟.
ـ أنت ثرثارة.
ـ كنتُ أمزح.
ـ تتدخلين في ما لا يعنيكِ.
ـ أنا وحيدة وأحتاج إلى من أتحدث إليه.
ـ عذر سخيف.
ـ يا رجل.

بغتة امتلأ بشعور بالشفقة، وكان يحدق إلى الأشجار العارية وهي تهتز تحت السماء المكفهرة.

ـ حقاً، الوحدة تجعلنا غريبي الأطوار.
ـ أليست لك زوجة ؟.

لم يرد.

ـ أماتت ؟.. أنا آسفة.
ـ ستكون ليلة باردة.
ـ لقد تأخر القطار.
ـ لم يأتِ في موعده قط.

عاد الجنود إلى صخبهم. ولما استدار الرجل الكهل رأى عدداً آخر منهم.. قال:

ـ لولا الجنود لبقيت القطارات فارغة.

ران الصمت عندما تناهى صفير القطار.

قالت المرأة العجوز:

ـ سيسقط الثلج ثانية.
قال الرجل الكهل:
ـ ليسقط.

***

5 ـ محطة الغياب.

سعل الرجل الهرم حتى دمعت عيناه فتهيأ له أنه سيختنق ..حينئذ اختفى القطار الذي أتى به في متاهة الغروب والغبار.

لا يدري ما الذي دعاه إلى النزول في هذه المحطة.. ربما هو الضجر، أو التعب بعد السفر الطويل. ولكن لماذا هذه المحطة دون غيرها من المحطات التي مرَّ بها؟ فهذه المحطة لم تكن له فيها ذكريات راسخة، ولا يعرف من عمالها وموظفيها وشرطتها أحداً.

بناية المحطة القديمة متسربلة بأولى أستار الظلام، وظن أنهم نسوا إشعال المصابيح. ورأى أن الجانب الأيسر من البناية مهدم.

مشى بتؤدة وهو يحمل صندوقه. ولم يكن قد لمح أحداً بعد ..عثرت قدمه بكومة من الأحجار،وكاد يسقط.

رغب في أن يتأكد من الوقت.. رفع رأسه.. كانت ساعة الحائط الكبيرة بلا عقارب. وفي الرواق تهشمت تحت حذائه المتهرئ قطعة من الزجاج، ثم وجد نفسه يسير على كسر من الزجاج. وبعسر استطاع أن يميّز منفذاً فدخل مكاناً يُفتَرض أن يكون قاعة انتظار للمسافرين.. فاجأه صوت خافت ينبعث من زاوية في الجهة الأخرى من القاعة راسماً شكلاً هلامياً رجراجاً على الحائط.

تقدم ـ وقد إطمأن قليلاً ـ ناحية الضوء.. لقي باباً

نصف موارب، دفعه فصُعق.. كان ثمة رجل أشعث بوجه هضيم جاف يتكور على بساط عتيق، في غرفة صغيرة ملحقة بالقاعة، وهو يرتجف.

ـ السلام عليكم.

لم يرد الرجل الأشعث..مدَّ رأسه ثم أخذ يصيح.

ـ من ... من أنت ؟!.

جمد الرجل الهرم في وقفته، وقال:

ـ ما بك ؟

ـ رُح.. رُح.

ـ أين الآخرون.

ـ راحوا.. ما الذي جاء بك؟.. رُح.

ـ أين راحوا ؟

خرق سكون الليل عواء مديد .. همس الرجل الأشعث بذعر.. همسه كان كالصفير.

ـ الذئاب.

ـ لا تخف.. إنه ابن آوى جائع.. حيوان مسكين يخاف من ظله..

دهم السعال الرجل الهرم ثانية فجلس على البساط إلى جانب الرجل الأشعث، واضعاً صندوق بضاعته أمامه.

هزَّ الرجل الأشعث رأسه دلالة الاطمئنان وقال بصوت معتل:

ـ بائع جوال أنت؟

ـ كما ترى.

ما الذي أوصلك إلى هنا؟

ـ القطار.

ـ القطار؟! أي قطار؟! القطارات لا تصل هذه

المحطة.. منذ أشهر لم يصل أي قطار!
ـ كيف؟.. أنا جئت بالقطار.
ـ لا.. لا.. وهم.
ـ وهم؟!
شعر الرجل الهرم بالدوار.. أنعم النظر إلى الرجل الأشعث.. إلى عينيه الداميتين، وبشرته اليابسة وفوضى لحيته، وسأل:
ـ أين هم موظفو المحطة، والعمال؟.
ـ أنا الحارس.
ـ وماذا تحرس؟
ـ قالوا ابق احرس.. لا أحد يأتي.
ـ لا أحد.
ـ إلاّ ولد أسمر.
ـ من هو؟
ـ لا أدري.. يجلب أحياناً الطعام.
ـ لماذا لا تُغادر.
ـ قالوا لي ابق احرس، أنت المسؤول.
ـ تبدو مريضاً، ومريضاً جداً.
أغمض الحارس عينيه.. اقترب منه الرجل الهرم وأمسكه من معصمه.
ـ حرارتك مرتفعة.
بحث في صندوقه، ومن كيس نايلون صغير أخرج قرصاً أبيض وسأل عن الماء.. أشار الحارس إلى صفيحة صدئة.
أعطى الرجل الهرم الحارس القرص الأبيض وقال:
ـ ابلع.

ـ لا فائدة.

انكفأ الحارس وانكمشت أساريره حتى بدا وكأنه في غيبوبة.. قال الرجل الهرم.

ـ أنت؟

لم يلق جواباً.. قرّب الصفيحة الصدئة من فمه.. كان في قعرها قليل من الماء.. هجمت على خياشيمه رائحة زنخة بيد أن العطش جعله يشرب، وكاد يتقيأ.. وفجأة راح الحارس يريل.. بعد ذلك أطلق صوتاً واهناً كان يتصاعد ثم يضعف، واستحال بعد حين إلى هدير أجش، متصل وغاضب، أشبه ما يكون بهدير طائرات تقترب ثم تبتعد.. وأخيراً صرخ:

ـ لا.. لا.. لا..

صرخته كانت متحشرجة، ثم صار يختض.. ضربه الرجل الهرم برفق على كتفه:

ـ استيقظ.. لابد أنت يكون كابوساً.

دعَك الحارس عينيه وهو يتأوه.

ـ لم البناية مهدمة؟

ـ أتسمع الريح؟

ـ الريح ستزيد الغبار.

ـ الغبار في صدري.

ـ أنت بحاجة إلى طبيب.

ـ قالت؛ ستموت وحيداً، منسياً.

ـ من؟

ـ أتسمع الريح؟

سقط الحارس على جنبه، راجعاً إلى مدار نومه أو غيبوبته، واستلقى الرجل الهرم على البلاط.. لم يكن باستطاعته أن يغفو كما كان يتمنى، وبعد نصف ساعة ـ

أقل أو أكثر قليلاً ـ انتفض الحارس، وتسارعت أنفاسه.
أعانه الرجل الهرم ليتمدد على ظهره.
ـ أليست هنا بيوت قريبة؟.
ـ كلهم رحلوا..
كان صوته الآن أكثر وهناً.. مشروخاً ومؤسياً.
ـ والولد الأسمر؟.
ــ لا أدري.. قال أن أهله لم يغادروا.. لعلهم لم يغادروا.
ـ ومتى سيأتي؟
ـ لا أد......
من أحشاء الليل انبعث العواء ثانية.. كان أشد وضوحاً هذه المرة، وأعمق شكوى وعناداً.
ـ الذئاب.. الذئاب.
ـ لا تخف.. قلت لك إنه ابن آوى.
ـ الذ.. الذ.. الـ.......
تبدد صوت الحارس في الفضاء الشبحي المصمّت، وتقبّض إيقاع تنفسه، وتناثرت من فمه كلمات خافتة النبرة بلا مخارج دالة، لكنها شاكية، تحولت بعد حين إلى هذيان رتيب، ثم إلى هدير.. هدير طائرات بعيدة، وبغتة انتفض وسكن.
حسب الرجل الهرم أن الحارس قد نام. ولما عاود الحيوان الليلي عواءه الفاجع المرير كرّة أخرى اكتشف الرجل الهرم أن الحارس قد مات.
انقضت دقائق قليلة، كان الرجل الهرم خلالها هادئاً، تمرقُ في دمه عربات الحزن.. كان حزيناً حدّ النقاء، وألفى دموعه تجري، وتذكر أنه لم يبكِ منذ زمن بعيد.
قام متباطئاً وفتح النافذة.. ريح الصحراء كانت تهب،

وامتلأت الغرفة برائحة الغبار.. خرج إلى قاعة الانتظار حاملاً الفانوس بعد أن أغلق باب الغرفة خشية أن يدخل حيوان ما ويلتهم الجثة.. كان هناك حطام مقاعد خشبية، ونثار من الزجاج والطابوق.. وعبر المنفذ إلى الرواق حيث أبصر باب القاعة في الضوء الشحيح مخلوعاً ومحطماً وملقى إلى جانب عمود معدني معوج..

مشى إلى الجهة الأخرى.. طالعته أشجار الكالبتوس والصفصاف اليابسة.. خطر له أنها ماتت عطشاً.. فكر أن يبحث عن الأراجيح في الحديقة المجاورة لبناية المحطة.. كان يعرف أن في كل محطة ثمة أراجيح. ولا يدري لم جعل يفكر بالأراجيح وهو الذي خرج باحثاً عن معول ليدفن جثة الحارس..

لم يعثر على الأراجيح، غير أنه بعد مدة ـ ربما طالت ـ ميّز معولاً تحت ركام من السلاسل الحديد.

أمضى بضع ساعات وهو يحفر، والريح تمرر أصابعها الخشنة بين أطرافه المبتلة بالعرق لتنشفها. وكان منهكاً تماماً وجدّ عطشان، وانطفأ الفانوس، غير أن عينيه ألفتا العتمة تحت أنفاس النجوم. ولامَ عقله لأنه لم يتذكر صنبور الماء الذي لابد أن يكون في مكانه المعتاد كما في المحطات كلها، والتي عاش حياته متنقلاً في ما بينها.. سيشرب ويغسل الجثة. لكن الصنبور الذي كان حقاً في مكانه المعتاد لم يُنزل قطرة واحدة فعاد تنتابه مشاعر الخيبة والوحشة والفقدان.. ماذا لو أن الحارس كان صادقاً، وأن القطارت لن تمر بهذه المحطة أبداً؟.

وحيّره السؤال: كيف جاء؟ وبدا أنه غير واثق من ذاكرته.. أية رحلة غريبة هذه التي قام بها؟ وخيل إليه أنه رأى حيوانات تصطف في أفق الظلمة تتربص، لذا أرجأ سحب الجثة ودفنها لئلا تُهاجم وتُفترس.

وقال لنفسه: عندما ينبلج الصبح ستهرب بنات آوى.

ولا يدري ما الذي جعله يعتقد أنها بنات آوى، بينما كان من الممكن أن تكون ذئاباً، كما راح يتوجس.

لم يأبه كثيراً إلا أنه ظل ممسكاً بالمعول. وطلع قمر مبتور مجدّر تتخلله عروق دامية زادَ من إحساسه بالتوحد.. وتخيل الولد الأسمر رشيقاً طويلاً يقبل من بين الأشجار المستكينة واختلاجة الفجر، يعينه في دفن الجثة، ويمضي به إلى حيث المدن والمحطات المزدحمة..

أخذت بنات آوى تعوي، وانفجر هو بسعال جاف.. ممزق.. وعلى حافة القبر، فوق كومة التراب الهش الطري، والريح تشتد، جلس ينتظر.

بعقوبة/1993

ജ ജ

بيت العناكب

﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾

(العنكبوت، آية41)

.1.

كان الفيضان جامحاً إلى الحد الذي ألقى بمحتويات البيت الكبير ذاته إلى العراء بعد زمن طويل من الانغلاق والتستر المريب خلف باب خشبي عملاق وسياج عال من الطابوق السلطاني الأحمر، فتلك الشرنقة الحجرية المهولة انهارت أركانها لتكشف عن عناكب الوهم التي كانت تسرح في الداخل منذ ملايين السنين كما أظن، أو منذ قرن من الزمان أو أكثر، أو ربما أقل كما يدّعي بعض الناس ومنهم أبي، فإذ ذاك أيقنا أن خدعة أخرى بل أكثر الخدع فظاعة قد تبددت بفعل قوة جبارة اجتاحت بلدتنا المستكينة، من دون توقع، في ليلة لم تكن هادئة.. أجل، إلا أنها لم تنبئ بوضوح عن المفاجأة المذهلة التي حصلت، فطلائع الغيم الآتية من جهة الغرب عصراً كانت تحمل رائحة مطر غزير سينهمر، ويبدو أن الدفعات

الجرارة من الغيوم قد أعقبت ذلك بعد هبوط الظلام ليتآزر معها ذلك المد العظيم من المياه التي حملها النهر من الشمال البعيد، ولا أظن أن الأمر كان محض مصادفة.. استيقظنا أنا وزوجتي على أثر الصرخات الفاجعة المنبعثة من البيوت القريبة.

- ما الذي يحدث؟

- وما أدراني؟. كنا نياماً كأهل الكهف..

كان الظلام كثيفاً.

- ترى لماذا قطعوا التيار الكهربائي؟

- أنت تسألين أسئلة لا معنى لها.

خرجت من الفراش الدافئ أتحسس طريقي في العتمة بحثاً عن الفانوس الذي لم أكن أتذكر أين يمكن أن يكون الآن.. سألت زوجتي فقالت إنها لا تعلم.. عثرت على علبة كبريت وأشعلت عود ثقاب وتمكنت من فتح باب الغرفة والخروج إلى الباحة، وعندما خطوت الخطوة الأولى غمر الماء رجليَّ حتى الكعب، وكان المطر يسقط بغزارة لم أعهدها من قبل.

تعالت الصرخات ثانية.. ظننت للوهلة الأولى أن مسنّاً آخر قد مات، ففي الأسبوع الفائت كان قد مات ثلاثة منهم.. إنهم يستدعون بعضهم بعضاً.. قلت أن هذا الرجل (أو هذه العجوز) سيء الحظ لأنه مات في ساعة كهذه، ولكنني انتبهت إلى أن الصرخات تنطلق من جهات عديدة.. دخلت المطبخ، وبعد لحظات وجدت الفانوس وأشعلته.. سرت نحو الباب الخارجي وهناك وقفت مصعوقاً.. كان الماء يتدفق بشكل مروع من أسفل الباب الذي كان على وشك التداعي.. رجعت إلى زوجتي راكضاً.

- قومي أيتها الخائبة.. إنه الفيضان.

لا أدري كيف خطفت جسدها من على السرير بتلك السرعة وألقته بين ذراعي حتى كاد الفانوس يفلت من بين أصابعي.. قلت:

ـ رويدك فالماء لم يصلنا تماماً.

طلبت منها أن ترتدي معطفاً ثخيناً وفعلت مثلها.. أخذت ساعتي ومحفظتي التي لا تحوي سوى بضعة دنانير، وحملت هي صرّة صغيرة وضعت فيها قطعاً من الملابس وشيئاً من الخبز والتمر اليابس، ودست بقرطيها الذهبيين وسوارها الذهبي النحيف في جيبها وخرجنا.

في الباحة كان مستوى المياه قد ارتفع، وكان الباب الخارجي يهتز مقاوماً قوة دفع الأمواج، وحين فتحته بحذر واجهتنا رشقة هائلة ولكننا اخترقناها فصرنا في الزقاق، وكان المطر قد توقف فحمدت الله.. الناس يأتون فرادى وجماعات يسبقهم لغطهم وصراخهم الخائف متجهين نحو منطقة التلال في الشرق.

ألقيت نظرة على شبح البيت/ بيتي في العتمة.. نظرة أخيرة ـ إذ كنت أعلم أنها الأخيرة ـ نظرة مؤسية، وشعرت بالانقباض.. لا جدوى من البقاء إذ لا أحد بإمكانه الآن إيقاف الزحف العنيف الحر للمياه المنفلتة.

قال أحدهم أن البساتين غرقت وأن رؤوس النخيل وحدها تلوح فوق المياه في تلك الأرض المنخفضة عند كتف النهر. وخطر لي أن ألتفت نحو البيت الكبير.. البيت القديم.. كان ما يزال صامداً ببوابته الكبيرة وسياجه الصلب وشرفاته المعقوفة الثلاث.... خيل إلي أنني رأيته في الشرفة الوسطى.. واقفاً وحده.. الرجل الهرم.. بيك العصور المنقرضة، مثل خيال المآتة، يتأمل المياه ببرود.. أستطيع أن أقول: ببرود.. شكل وقفته كان يوحي بذلك.. سحبتني زوجتي من يدي.. راحت الفوانيس تتقارب في درب الهروب نشداناً للأمان، وللعزاء من أن المصيبة قد

طالت الجميع من دون استثناء.. وفكرت لا.. هناك استثناء واحد ربما.. ربما البيت القديم والرجل القديم وغرف الهوام وسراديب العناكب.. عالم الأساطير المتنفسة في ذاكرة البلدة حتى هذا اليوم.. حتى هذه الساعة.. لا أحد ينسى.. لا أحد بمقدوره أن ينسى.

كانت الأسماء تتابع على الألسن، وبكاء الصغار المروعين.. تأوهات العجائز الملاحقات بصولجان الموت، وصيحات الاستنجاد التي كانت تتناهى مثل الصدى كأنها آتية من أمكنة نائية وأزمنة غابرة.

أقسم أحدهم بأغلظ الأيمان أنه رأى بواكير المياه منذ الغروب وهي تشبه الجبال الراكضة في النهر.. بسمل شيخ كبير وحوقل آخر. وبعد دقائق طويلة فطنا إلى أن لا ماء تحت أرجلنا.. لقد سبقنا الفيضان، ولكن رجلاً أكد بثقة أنه سيطاردنا وربما غمر التلال أيضاً.. قال شيخ آخر "لا عاصم اليوم من أمر الله". وكنا نمشي.. نمشي.. صارت البلدة وراءنا.. كنا مثل فلول جيش مهزوم من كارثة ماحقة.. الفلول التي نجت بأعجوبة من الموت وتبغي الآن أرضاً محايدة لتطمئن. وبعد ساعتين أو أكثر تسلقنا التلال أو وجدنا أنفسنا نتسلقها، وعندما جعلنا فوق قممها الواطئة جلسنا لاهثين، وإذ ذاك شعرنا للمرة الأولى بأن الرياح باردة جداً، وأن المطر سيعاود السقوط ثانية.

ـ 2 ـ

مذ وعيت الدنيا رأيته أمامي، راسخاً كما لو أنه كان هناك منذ الأزل، وإنه سيبقى راسخاً هكذا حتى نهايات العالم، وعندما قال أبي أن هذا البيت قد شيد في الزمن الذي عاشه جدي الرابع، لم أستطع تصديقه وشطحات خيالي اللاحقة مدينة إلى أبعد الحدود لوجود هذا البيت/ القصر أمام بيتنا... كنت أقترب من سياجه العالي بأقدام

وجلــة أحــاول أن أحــدس مــاذا يمكــن أن يكــون وراء هــذا العـازل الشـاهق، ومـا الـذي يجـري داخـل بنائـه الأسـطوري الغريـب.. البيـوت كلهـا فـي العـالم الـذي أعـرف متشـابهة إلا هذا.. كنت أذهب مع أهلي إلى بيوت شتى في أزقـة بعيـدة.. أعـاين هندسـتها فـلا أجـد كبيـر فـرق بينهـا وبـين البيـوت فـي زقاقنا، غيـر أننـي لـم أر بيتـاً كهـذا الـذي لا يفصـله عـن بيتنـا سـوى عـرض الزقـاق الـذي لا يتجـاوز بضـعة أمتـار.. إنـه البيـت القديم.. البيت الكبيـر.. كـان إزاء نـاظري دومـاً، وكـان يستحوذ على معظم حجم الكون الغض الذي هو عقلي.

أدنــو مــن الســياج.. يتملكنــي فضــول كاســح.. أجلــس وألصـق أذنـي علـى طابوقـه البـارد.. البـارد فـي الفصـول كلهـا.. أتسمّع.. التقط مويجـات الصـمت.. الصـمت الثقيـل.. الصمت الذي ينـذر بـدوي مـاحق قـد يصـدر فـي أيـة لحظـة.. الصــمت الــذي يســتحيل شــيئاً فشــيئاً إلــى صــفير رفيــع، موحش، أو إلى أنين أليم.. "إنـه البيـك يحتضـر" كنت أقـول "إنــه يحتضـر منـذ سـنوات سـحيقة" حتـى إذا بـدأت الكـلاب تنــبح كنــت أنســحب.. كنــت أعتقـد أن النبــاح المتحشــرج الشـرس ذاك لـيس لكـلاب ككـلاب الزقـاق.. كنـت أتخيلهـا كلاباً بشعور ملفوفة غزيرة وعيون ناريـة جاحظـة ومخالـب حمـر.. كنـت أنسـحب مملـوءاً بخـوف غـامض وبإحسـاس مهـيمن مـن أنهـا سـتتنغّص علـيَّ أحلامـي، غيـر أنهـا لـم تقتحمها.. كانت فقط ترتسم لـي فـي مشـهد مرعـب وأنـا فـي أشد أوقاتي يقظة.. تحاصرني من كل جانـب وتـنقض علـيّ وتباشر بتقطيـع أوصـالي بشـرهٍ حاقـد وأنـا أتـألم.. كـان الألـم يغدو حقيقياً في لحمي وعظامي، وعندما أصحو من سطوة هــذا الخيــال أجــدني وقــد تعــرّق جبينــي وغــزا الجفــاف حنجرتي.

مـرة واحـدة فقـط حلمـت بالبيـت الكبيـر.. حلمـت بـه يحتــرق.. تلــتهم النيـران فيــه كـل شــيء، حتــى الحيطــان،

وتخرج العناكب وهي تشتعل ثم تصير هباء. ولكن لا كلاب.. لا نباح.. كانت الحرارة شديدة، وكنت في زاوية لا أجد لي مخرجاً منها، يستولي عليَّ فزع مميت من أن الكلاب ستخرج من دوامة الحريق كتلاً من نار وتهجم علي.. وبدأت أصرخ.. أصرخ.

أيقظوني وكنت أختض.. قالت أمي: حرارته كالتنور.

- 3 -

كنت أصعد إلى سطح دارنا لألقي نظرة إلى داخل البيت الكبير، ومن بين فتحات الستارة الدائرية، الصغيرة لا أرى سوى الشرفات الثلاث المعقوفة. أقف ثمة دقائق طويلة تحت وطأة هواجس مبهمة، أمنّي النفس بأن تُشرع نافذة ما لألمح ولو للحظة وجهاً ما، كائناً ما، حيواناً ما، أو يُفتح باب من تلك الأبواب التي تؤدي إلى الشرفات. ولكن: لا فائدة.. الأبواب والشبابيك صماء كأنها ركِّبت هكذا، غير قابلة للفتح والإغلاق. فوق الشرفات هناك الستارة المزخرفة الهائلة الألوان، والمتآكلة أيضاً، أما تحت الشرفات فعالم مختف خلف أشجار التوت والكالبتوس المنفوشة والمتداخلة. وكانت الشرفات المعقوفة الثلاث تشكل قوساً لم أكن أعرف أين ينتهي، لذلك كنت أظن أن الشرفات هي في الحقيقة ليست ثلاثاً فقط، بل أن هناك تتابعاً كبيراً منها إلى اليسار وإلى اليمين تكمل دائرة واسعة في المجهول.

في ليلة صيف غبراء كنا فوق سطح الدار نرقد أنا وأبي وأمي على أسرّتنا.. أنا على سريري وهما على سريرهما المشترك داخل الناموسية البيضاء. وفجأة انبعثت صرخة ممطوطة وجيعة.. كنت بين النوم واليقظة، أتحرى في السماء العكرة عن النجوم، عن بنات نعش، وعن الميزان.. عن كواكب للحظ والسعد.. أحسست أن أمراً

جللاً قد حصل.. غادر أبواي سريرهما نحو الستارة المطلة على الزقاق.. تلك الصرخة أعقبها صياح وشتائم وأصوات ضرب.. عندما اندفعت أخيراً لأنظر عبر واحدة من فتحات الستارة كان كل شيء قد تلاشى.. الأشخاص والأصوات والحدث.. لم أرَ إلا الباب الشاهق وهو يغلق بعنف ومن دون أن يصدر صريراً أو فرقعة كما كنت أتوقع إذا ما أغلق بعنف.

تبادل أبي وأمي نظرة ذات مغزى وهما ينسحبان إلى سريرهما ومن غير أن يفوها بكلمة.

أمرني أبي:

ـ عد إلى فراشك.. الساعة متأخرة.

سألت برجاء:

ـ ما الذي جرى؟

ـ لا شيء.. لا عليك.

ـ أبي.. من كان يصرخ؟

ـ قلت لا عليك.. عد إلى فراشك.

وعدت إلى فراشي.. عدت إلى ضغط الأسئلة السائبة وإلحاحها.. عدت إلى نفسي.. إلى تلك العقدة التي هي البيت الكبير.. انقضى زمن مديد وأنا أكابد بذكائي الغرير.. بسذاجتي الخرقاء بحثاً عن مفتاح لهذا اللغز الجديد.. عن مفتاح قد يعينني على فك مغاليق البيت المحيرة كلها.. كالعادة تجلّى مشهد قاتم في مخيلتي.. رجلان مفتولان يقتادان شخصاً بائساً، ضئيلاً تحت ضربات عصا غليظة إلى داخل البيت.. إلى أحد سراديب العناكب وربما كان الليل قد انتصف عندما راحت صرخات حادة مستنجدة ونائية كأنها آتية من خلف التلال البعيدة تتناهب داخل أذني. ولم تكن الصرخات قد انقطعت عندما تمكن مني ملاك النوم. وفي الصباح حكيت لأبي عن الصرخات التي

سمعت غير أنه أنكر أن يكون ذلك حقيقياً.. قال.
ـ لا شك أنك كنت تحلم.

وبدءاً من تلك الليلة قفز من قيعان مخيلتي عقاب شرس نهم عاري الرقبة ينقر صدور الضحايا ويلتهم أحشاءهم.. حاولت أن أطرد هذا العقاب، أن أقصيه، أن أقتله ولكنني لم أستطع. قبع العقاب هناك في قفصه الحديدي داخل سرداب تقطنه أكثر كائنات البيت الكبير بشاعة وهو ينتظر في كل يوم جثة جديدة حفر عليها السوط أخاديد كالحة لينجز معها الفصل الأخير من كرنفال القصاص.. هذا العقاب كان ينتهك عالمي كلما جلست لتناول الطعام ليمارس أمامي طقسه الشنيع.

ـ 4 ـ

بعد يوم قاسي البرد فوق التلال، وبعد مواجهة جولتين حازمتين للمطر. وكان المطر قد وصل حتى الحافات الأمامية للتلال حضرت فرق الإنقاذ وفرق الإغاثة.. أقيم المخيم ووزِّع الطعام والبطانيات ونظرات الشفقة والكلام المفعم بالعزاء والوعود والأماني. وانتظرنا انحسار الماء حتى إذا مضى أسبوع كامل وعبرت الشمس فوقنا ـ أو نحن الذين مضينا تحتها ـ سبع مرات غيض الماء فنزلنا جماعات لنرى ما الذي حدث لبلدتنا المنحوسة. وإذ نحن في الطريق إليها تذكرت البيت الكبير.. السياج العالي والباب الشاهق والشرفات المعقوفة والبيك العتيق.. تذكرت الكلاب المنفوشة الشعر وغرف العناكب وسراديب الهوام والرجال الشرسين وأولئك الذين ابتلعت صرخاتهم الأغوار السرية لبيت الأمجاد البيكوية.

فكرت بالبيت الكبير ولم أفكر ببيتي أنا، بالغرف البائسة والحيطان المحدبة والسلم الموشك على الانهيار..

لقد أذابها الماء كلها ـ بلا ريب وحمل طينها وأحجارها إلى الصحراء. ولكن البيت الكبير.. هل بإمكان الماء تقويض أركان البيت الكبير والنفاذ إلى أعماقه المعزولة وخلع نوافذه وأبوابه، ومن ثم تركه أنقاضاً تشير إلى أزمنة مفقودة، وكائنات منقرضة وبضع حوادث مشوشة في ذاكرة بعض الناس؟.

مررنا بدروب لم نتعرف عليها، وأحياء لم نتبين ملامحها، وأزقة ضاعت حدودها.. كانت البلدة قد غادرت مع مارد الفيضان إلى حيث لا نعلم، وبقيتْ ثمة أشجار مقتولة وخرائب مضللة وأشياء كانت يوماً ما أثاثاً وأدوات منزلية ولم تعد ذات فائدة الآن.

لم نكن نرجو أن نرى بيوتنا سليمة وأزقتنا عامرة. ولكن كنا نريد نقل صورة حقيقية عن الكارثة لأولئك الذين لم يشاءوا مغادرة المخيم معنا.

كومة الأحجار التي كانت يوماً ما بيتي ما كان بمقدوري تمييزها لولا البيت الكبير ـ أو بقايا البيت الكبير.. وقفت مشدوهاً بقلب واجف أجيل البصر فيما آل إليه مصير البيت الكبير.. لم يعد هناك سياج عال.. لم يعد هناك باب شاهق.. لم تعد هناك شرفات معقوفة.. خطوت بحذر لأعاين ما وراء الأشجار الساقطة وتل الحجارة.. كنت وحدي في هذا المكان، وشعرت بدمي يندفع بشدة هوجاء في تفاصيل الجسد.

لم أجرؤ على عبور مقدمة الأطلال ـ موئل كوابيس طفولتي.. جمدت.. ماذا لو..

وابتسمت.. لِمَ أدع مخاوف السنوات البعيدة تسطو عليّ؟. خطوت خطوة واحدة ـ لا غير ـ ثم تراجعت مرجئاً مغامرتي الاستكشافية إلى يوم آخر.. قريب.

-5-

يستطيل البيت الكبير بدءاً من نهايات الجذور في مخيلتي النزقة غرفاً موحشة عفنة الظلمة ينفتح بعضها على بعضها وتمتد أنفاق رطبة عطنة تنزل منها سلالم متضعضعة إلى سراديب تقطنها جنيات ساحرات يمارسن طقوساً عجيبة ويؤدين رقصات منفعلة على إيقاع طبول يضرب عليها أقزام ملعونون.

تحتل الجدران مستوطنات العناكب حيث أجيال من حشرات مشنوقة حُنِّطت، وأرتال من عصافير مخدوعة أُستدرجت ولم تبق منها إلاّ عظام رفيعة وصدى زقزقات مستنجدة، وحفنات عالقة من ريش ذابل. وينز من الزوايا ماء كالصديد تخوض في بركه أفاع قميئة.

البيت الكبير مرتع كوابيس طفولتي ورعب سنوات الحرمان.. كنت أراه كائناً أبداً بواجهته العتيقة التي استفزت فيَّ شياطين الخيال حتى كنت أظن أحياناً بأنه لم يكن قط على بعد أذرع قليلة من عتبة دارنا المنذورة للفيضانات والحرائق.

البيت الكبير، وكان يتهيأ لي في بعض الليالي وأنا عند الحافة القلقة بين النوم واليقظة بأنه وهم ليس إلا، وأنني لن أجده غداً قبالتي عندما أفتح نافذة الغرفة/ غرفتي التي طالما دهمها سكان البيت الكبير المرعبين المشاكسين في الليالي، ودائماً في الليالي المختنقة من الظلام.. أفكر بأنني حين أستيقظ وأفرك عيني وأزيح الستارة سأُفاجأ بحقل قمح أمامي أو صفوف باهرة من الأشجار ولكنني أستيقظ وأفرك عيني وأزيح الستارة وأراه في رسوخه القدري.. البيت الكبير/ معبد مخاوفي، فتهزني ارتعاشة مباغتة، صاعقة تفض الغشاء المخادع الذي تكوّن في الليلة الفائتة، فتتشخص الحقيقة.. الحقيقة المربكة للبيت الكبير/ هيكل وساوسي، وتتجسد حالاً تضاريس المدينة

الغائرة المسحورة المختبئة التي ما وطأتها الشمس في أي يوم من أيام الرب.

وعبر تلك الفوضى يتسلل البيك شبحاً عتيقاً مغبراً، هائماً بين أفخاخ العناكب وبرك الأفاعي وأضرحة الحشرات الهوائية في ليل السراديب الأبدي، بيده فانوس متحشرج الضوء وعصا يتسلقها الدود، فأكاد أتصور تماماً عينيه الباهتتين ـ على الرغم من أنني لم أر البيك عن قرب وبوضوح ـ وهما تجوسان خلل عالمه الخاص، المملوك الحر، المستقل عن العالم الآخر.. عالم شقائنا نحن.. هناك اختفى ذات ليلة بعيدة رجل اقتيد عنوة تحت ضربات السياط أو العصي أو الأيدي الخشنة القاسية، ولم يخرج.. قال أبي.. "ارجع إلى فراشك ونم.. لا عليك" وانتهى الرجل ربما بين أضراس الكلاب وخراطيم الحشرات الماصة وفي قدور الجنيات في إحدى احتفالات السحر الليلية، بحضور المبجل الفذ/ بيك البيت الكبير/ صياد لحظاتي المشتطة، وطريد خيالي حتى ليلة الفيضان، وربما حتى إلى الزمن الذي بعدها.

ـ 6 ـ

قال أبي "البيك ليس هو البيك ذاته منذ وجد البيت الكبير.. الذي بنى البيت هو البيك الجد فورثه منه البيك الابن ثم البيك الحفيد.. إنه البيك الحفيد من يسكن الآن في البيت الكبير".

رأيته مرات عديدة يمتطي حصانه الرشيق الأسود داخلاً الزقاق ثم البيت إذ يفتح الباب حالما يصل، لا أدري كيف، أو خارجاً من البيت دائماً على حصانه الرشيق الأسود وهدفه في كل مرة تفقّد أملاكه.

قال أبي "كان البيك الابن يفخر بعدد نخيله الذي يربو

على الخمسين ألف نخلة وبعدد ماشيته التي لا تعد ولا تحصى.. كان يقول.. خمسون ألف نخلة بها أطوق البلدة، وبها أستطيع أن أجعلها تتنفس أو تختنق".

كان البيك الابن يكلم الناس ويجالسهم أحياناً ويضحك معهم أيضاً، كما يقول أبي، أما ابنه، البيك الحفيد، فلم أسمع أنه كلّم فلاحاً من فلاحيه مباشرة.. إن أتباعه وحدهم لهم الحق في الاستماع إليه، لا مناقشته، ومن ثم نقل أوامره التي لا تناقش ولا ترد.

كنت أكابد في سبيل القبض على ملامحه.. كان وجهه كالزئبق يفلت من سيطرة مخيلتي.. على الحصان الرشيق الأسود كان يجيء بعمامته المقصبة وبندقية الصيد ملتصقة بالسرج في متناول يده القديرة.. الحصان يخب، وخلفه الرجال يلهثون وهم يسرعون الخطى للحاق به حتى إذ بدأ الحصان بالعدو راحوا يهرولون والعرق يتصبب منهم، والنساء يخفين ضحكاتهن المتهكمة تحت النقاب والأطفال يصفقون.. مشهد غالباً ما يتكرر. أما أنا فأقف على عتبة باب دارنا، أرسل النظر دون تردد إلى وجهه.. إلى عينيه.. إلى أنفه.. إلى فمه.. أتبين شكل كل جزء من ذلك الوجه ولكن الوجه بكليته لا أستطيع أن أعكسه على شاشة ذهني، أو أن أتمثله في ذاكرتي ولكني عندما أراه أعرفه.. لا يمكن أن أتوهمه إنساناً آخر حتى وإن قابلته متنكراً بزي غير هذا الذي يرتديه أبداً.. صايته التبنية وسترته الفضفاضة والغترة البيضاء والعمامة المقصبة.

- 7 -

لم يقل أبي ولكن الآخرين قالوا "أن البيك مغرم بالرقص وهز البطن والأرداف، وأنه خصص جزءاً من بستانه لإحياء الحفلات الماجنة" راقصات شهيرات كن يأتين تحت جنح الظلام ويغادرن تحت جنح الظلام من

دون المرور بالبلدة.. كانت سيارة البيك التي لم تدخل الزقاق أبداً تحملهن من ملاهي العاصمة إلى ذلك الطرف السري من البستان عبر الشارع الذي عُبِّد من غير أن تكون له أية ضرورة بيد أننا فهمنا بعدئذ لأية ضرورة عُبِّد وسماه الناس (شارع القحاب)/ هناك ـ والعهدة على الرواة ـ كان البيك يتوسط الحلقة فوق بساط كشميري وسطل العرق أمامه ـ أجل سطل العرق لا زجاجة العرق ـ يغرف منه بطاسة نحاسية ويتابع بعينين شرهتين اهتزازات الأجساد المبذولة.. كانت الحفلات تستمر حتى ساعات الفجر، وعندما تغادر جوقة الطرب يكون البيك قد غط في نوم ثقيل، لا يصحو منه إلاّ على عواء بنات آوى في بداية الليلة التالية.

والبيك نفسه كان حريصاً على فرش سجادته بين حين وآخر أمام الفلاحين، والاستغراق في صلاة صامتة، وخلفه رجاله وهم مدججون ببنادق البرنو، وبالتجهم والحقد أيضاً.

لم يدخل الجامع أبداً.. قالوا أنه يرفض بكبرياء وتغطرس الوقوف خلف الإمام "لن أكون أدنى من أي كان في هذه البلدة، ولن أجعل قيادي بيد أي كان في هذه البلدة، ولن أستمع لمشورة أي كان في هذه البلدة "هذه الـ(لنات) الثلاث يقال أنه غالباً ما رددها في حضرة منافقيه لينقلوها باعتزاز إلى أسماع الجميع.

البيك.. البيك الجد أو الحفيد.. لا فرق.. البيت ذاته، والكلاب ذاتها، والعناكب ذاتها والأفاعي ذاتها. وكنت أخال الريح الصافرة الكئيبة المحملة بالغبار الأحمر تهب من كوى الغرف الفاسدة الهواء والتي لا تفتح إلا بأمر من بيك الأزمنة اللعينة ولا تغلق إلا إذا شاء.

إن قدح الماء لم يقص الجفاف المر من حلقي.. إن أقداح الدنيا كلها لو ملئت بالماء الزلال لما استطاعت

إرواء القفر الذي بت أحسه يتكون في صدري وأنا أعود من البلدة المنكوبة كما لو كنت محملاً بأنقاض البلدة كلها كصخرة سيزيف على كاهلي.

اندسست تحت الغطاء ولما تغرب الشمس بعد.. الفضاء الذي انكشف كان رمادياً.. ربطوا يدي بحبل خشن.. كانوا خمسة رجال أو ستة، وناولوا طرف الحبل للرجل الملثم على الحصان.. وفكرت، إنهم يريدون سحلي.. إلتفت الفارس إلي.. عرفته حالاً.. من عينيه الضيقتين عرفته.. من جبينه المحزز.. إنه البيك.. ماذا يريد البيك مني؟.. انطلق الحصان.. كان حصانه الأسود عينه.. كانت الأرض تحتي حصباء قاسية.. شعرت بألم ممض في جنبي وصرخت.. سقط البيك وتلاشى الحصان، وأيقظتني زوجتي.. كان الظلام دامساً، وكان الألم ينغز في جنبي، وكنت أتنفس بعسر.

ـ 8 ـ

لاحقتني كائنات البيت الكبير إلى المدرسة.. كانت تدخل غرفة الدرس لتخطفني من عالم أقراني وتوجه انتباهي إلى آمادها البغيضة.. كنت أحملق فيها مصعوقاً للحظات، ثم يعيدني صوت المعلم ثانية إلى غرفة الدرس. ومع مرور الأيام والسنوات كفّت تلك الكائنات عن اقتحام أسوار المدرسة المنيعة رويداً رويداً، ومراوغة صوت المعلم الذي بات يؤدي دور الحراسة لي ليحول دون ذلك الاقتحام.. يئست الكائنات تلك، لذا غدت المدرسة أكثر ألفة عندي من البيت، والنهار أشد لطفاً من الليل. وعندما ماتت أمي بعد موت أبي بأشهر لم يعد البيت ـ الذي صار بيتي، لي وحدي ـ يطاق.. لم أعد أحتمل دبيب الكائنات المحترس في عتمة الغرف والباحة.. لم أعد أحتمل ألعابها المجنونة مع انكسارات الظلال الراجفة على الجدران في الليالي

المقمرة.

قال رؤوف النجار:

أنت شاب ولا يليق بك العيش على الصدقات.. تعال اعمل معي، اكتشفت الرقية التي بإمكانها الفتك بكائنات البيت الكبير.. دق المسامير ونشر الخشب.. كان كل مسمار من تلك المسامير الناتئة يغوص في قلب كائن من تلك الكائنات ويقتله.. كل مسمار كان يقتل عنكبوتاً أو أفعى أو كلباً أو ابن آوى، أو جنية من جنيات السراديب النتنة ـ الشريرة. وكل حزة منشار كانت تفصل جسد كائن من تلك الكائنات عن رأسه.. أحببت العمل.. عشقته حد المرض.. حد التعب الذي يصل بالمرء إلى حافة الإغماء.. وكم حلمت برجال من أتباع البيك يأتون ذات صباح بعيون محتقنة ويطلبون مني.. مني أنا أن أصنع تابوتاً لبيك العذابات العاوية.. كنت أراهم يمرون قرب المحل.. وجوههم متجهمة والبنادق على أكتافهم العريضة والعصي في أيديهم. وعندما كانوا يقتربون كنت أنشر الخشب أو أدق المسامير بحزم وشراسة.

وفكرت أن أقتل العقاب.. العقاب الذي نقر قلب أبي والتهم كبده.. قلت" ألف مسمار.. لا أقل، سيصيب من العقاب اللعين مقتلاً.. وقتلته.

كبرتُ.. تحررت من أوهام كثيرة، واندحرت خيالات شتى أمام هجمات الواقع.. كبرت، وكنت أعتقد أن خارطة البيت الكبير المتشعبة والمرعبة ستتضاءل في رأسي.. تغيرت أشياء كثيرة. ولم تدم الأحوال مثلما كانت فقد تعلمت أشياء وأشياء غير أن البيت الكبير ظل يحتل الجزء الأهم من تضاريس ذاكرتي، واستمر في كونه الميدان المغري الذي يخوض فيه خيالي مغامراته.

ـ9ـ

ذات نهار شتائي أوقف سيارته السلحفاة ـ الفولكس واكن ـ الحمراء في مواجهة المقهى ونزل.. رجل في العقد الخامس ما يميزه طوله السامق وخيط شاربه الرفيع.. سأل عن بيت البيك.. أشاروا لي:

ـ هل تسمح أن تجيء معي؟

ـ لم لا؟

وصعدت إلى جانبه.. كدت أسأله عما يريده من البيك.. أهو قريبه؟ أم أنه جاء من أجل تعاقد تجاري؟ كنت أفتح فمي وأغلقه.. أريد الكلام لكن مشرط التردد يهوي على لساني ويجرحه.. تمنيت لو يتكلم غير أنه بقي صامتاً طوال الطريق.

ـ هذا هو بيت البيك.

ـ شكراً.

ونزلت من سيارته.. فكرت أن أبقى لأراقب كيف سيُستقبل بيد أنني لم أجد مسوغاً لنفسي يدعوني للبقاء فرجعت إلى المقهى.. في اليوم التالي سرتْ شائعة مهموسة.. الرجل واحد من أكثر قوادي العاصمة نفوذاً ومهمته تتعلق بصفقة دعارة.. بعد أسبوع شوهدت ثلاث سيارات تقطع (شارع القحاب) أول الليل، وتدخل واحداً من بساتين البيك عند كتف النهر. وقيل أن السلحفاة الحمراء كانت في المقدمة.

ـ10ـ

البيت الكبير عنكبوت أسطوري يستوطن جمجمتي ويقتات على الخلايا ماداً خيوطه اللزجة في الجهات كلها.

وعلى الرغم من فخامته، وضخامة أعمدته كان البيت

الكبير يتراءى لي في بعض الأحيان هشاً.. قابلاً للسقوط في أية لحظة.. وذات حلم يقظة تصورته يتداعى ليستحيل إلى ركام من الحجارة، والعناكب المذعورة التي ألفت الرطوبة تخرج سوداء تسعى من بين الأنقاض لتتحلل في الشمس. أما الأفاعي الزاحفة فتتكفل بها عصي الفلاحين الغليظة.. لم أفكر يوماً بفيضانات أو بزلازل أو بعواصف هالكة تكون السبب في المصير الحتمي المتوقع للخرافة المجسدة هذه. وحتى لو كنت أفكر بمثل هذه الأهوال فإن البيت الكبير كان يترسخ قوياً في مواجهتها، في دنيا تصوراتي.. كان الشيء الوحيد الذي ظننت أنه سيرسم نهاية البيت الكبير هو البيت الكبير ذاته.. قانون خاص سيفعل فعله في برهة خاطفة من الزمن عندما تتلاقى بمحض المصادفة في ذروة ما لصراع وتتخلع الأبواب وتختفي الشرفات المعقوفة عن الأنظار وإلى الأبد. ولكن ما كان يفزعني في الأمر هو ذلك التخيل العنيد الذي لم يكن من السهل إبعاده.. أن تجثم الأنقاض على البيوت القريبة من البيت الكبير ومن هذه البيوت بيتنا نحن.. كان كابوساً غاية في الرعب يمسكني من خناقي في وضح النهار.. لا يستمر إلا لمدة وجيزة ليخلف شعوراً كالحاً طويلاً بالضيق، وربما بالاختناق كذلك. أما حين تهب ريح شديدة فإنني لم أكن آمل أبداً أن تلحق ضرراً ما بالبنيان المرصوص للبيت الكبير.. الماموث المتحجر منذ ملايين السنين الضوئية والقابع كالقدر إزاء بيتنا.. ويحيرني سؤال ضاغط: لماذا اختار أبي هذا المكان ليبني بيته.. لماذا قبالة البيت الكبير تحديداً؟ ولكن: أهو أبي الذي بنى البيت أو هو جدي؟ ليكن الذي بناه أبي أو جدي، غير أن السؤال يلح: لما اختيار هذا المكان؟ هل كان في الأمر نوع من التحدي، أم هي الأمنية في أن تنوش بركات البيت الكبير البيت الذي يقابله؟ .. لا أدري، ولن أدري.. ثم لماذا لم أبع أنا البيت وأبحث عن بيت آخر في زقاق آخر، أو حتى في

مدينة أخرى وأهرب من تطاول البيت الكبير على أفكاري وعلى أحلامي وعلى زمني.. بصراحة؛ لم يخطر ببالي هذا الاحتمال قبل الآن.

ـ 11 ـ

ترى ما مصير البيك؟ هل غرق ودفن تحت أنقاض أسطورته المروعة؟ هل انسل في اللحظة الأخيرة هارباً من زحف الموت المقبل عليه؟ وإن كان هذا الافتراض الأخير صحيحاً فأين تراه في هذه الساعة؟ وتمنيت لو أراه الآن، وأتفرس في وجهه لأتحرى عن المكونات الخفية لأعماقه من خلال عينيه واختلاجات فمه الأدرد وخطوط التغضن على جبينه الأثري.. واستغربت كيف يموت وتبقى البلدة هادئة كأن شيئاً لم يحدث؟ وأقسم رجل أنه ميز البيك في الظلام ـ ليلة الفيضان ـ محمولاً على كتفي رجل من أتباعه، وحين سألت الحاج محمود قال:

ـ ما الفائدة إن كان مات أو لم يمت.. ما فائدة موته الآن؟

ما فائدة سؤال كهذا والبلدة خربت كأنها لم تكن يوماً؟

ـ 12 ـ

ضحى اليوم التالي كانت لي جولة أخرى في البلدة المهدمة.. شحنة من التوتر تجعلني في مستوى بين الوعي الحاد بالأشياء والغياب عنها، ورغبة غامرة تدفعني لتقويض رهاب البيت الكبير في نفسي.. في مضايق وأرخبيلات أعصابي.. أحث خطواتي.. أدوس على حشرات التردد التي تعترضني.. أقاوم بكتريا الخوف في دمي.. زرقة السماء نقية ووديعة، والريح لينة باردة

وخواطري شتات من أسئلة وذكريات وصور تضطرب وتذوي في قيعان لا قرارة لها.. أدنو من الزقاق.. أدنو من البيت الكبير منفى التهيؤات القديمة وشطحاتي.. وحدي، وحشد من عصافير تزقزق.. مجساتي مستنفرة.. وحدي، ورائحة نباتات متفسخة تستقبلني.. وحدي.. آه.. لست وحدي.. يقترب مني.. من أين أتى؟ وكيف انبثق من بين أكوام الطابوق والجص الذائب.

ـ جئت أبحث عن جنيات البئر.

قالها متهكماً وضحك.. قهقه بصوت عال، ثم أضاف من غير أن تفارقه سخريته.. بقيت صامتاً وتقصدت الابتسام.. هز رأسه وقد سافرت نظراته بعيداً.

ـ إيه.. الزمان.. كم هو قوي.. من كان يتصور؟

كنت مهتاجاً، وتمنيت لو يتركني هذا الرجل في هذه الساعة.. ما الذي جاء يفعله هنا؟ إنه من زقاق آخر.. أتكون كائنات البيت الكبير قد اغتصبت حياته هو الآخر واستحوذت على مساحات مهمة في تفكيره وخياله؟ وقبض على ذهني خاطر مخيف.. من يدري.. لعلنا جميعاً سكان هذه البلدة الشقية قد تعرضنا لانتهاكات تلكم الكائنات.

ابتعد الرجل وهو يزفر بحرقة، وأدركت أنني أصبحت وحيداً ثانية.. عادت الهواجس القلقة تنط في دخيلتي.. بيني وبين الخط الخطر متر واحد.. متر واحد فقط.. الفاصلة المستحيلة التي حددت نطاق عالمي طوال سنوات.. طوال مسافة العمر، وأحسستني أرتجف.. بررت ذلك بالريح الباردة، ولكن لا.. ونقلت خطوة قصيرة، ثم خطوة قصيرة أخرى. أما الخطوة الثالثة التي نقلت قدمي إلى ما وراء الحد الخرافي فقد كادت تطيح بي.. تمالكت نفسي.. تماسكت.. تنفست بعمق وكنت ما أزال أرتجف.. سحبت قدمي المتراجعة، وحين حامت في الهواء شعرت كم هو خفيف هذا الجسد وخشيت أن أتهاوى، أو أحلق

عالياً، غير أن نـزول مشط الأصـابع علـى الأرض المربكـة أعادت لي التوازن وخيل إلـي أننـي سحقت شيئاً مـا، تفتتت تحـت حـذائي.. شـيء لا أسـتطيع تحديـده تمامـاً.. شـوكة.. حشـرة.. عظمـة نخـرة.. شـظية زجاجـة.. لا أدري فعنـدما رفعـت قـدمي لـم أر ذلـك الشـيء.. لقـد غـاص فـي التربـة الرطبة.. أغمضت عيني وشعرت ببعض الارتياح.. كانت ثمـة الأشـجار أولاً.. الأشـجار وقـد تسـاقط بعضـها علـى بعـض، وغـدَت جـذوعها سـوداً وأوراقهـا ذابلـة.. تحاشـيت المـرور فوقهـا.. اختـرت ممـراً ضـيقاً ووقفـت إزاء جبـل الأنقاض.. قلت أن البئر ينبغي أن تكون في الجهـة الثانيـة، وفجأة قدرت ألا أفكر بـأي شـيء.. مشيت بخطـوات أردتهـا أن تكون واثقـة وصـعدت.. عثـرت بعارضـة ملقـاة بين نثـار المجد المهـزوم.. لـم أسـقط، ولـم أتراجـع.. واصـلت الرحلـة العصـيبة.. الرحلـة إلـى أعمـاق ذاتـي.. إلـى بيـت الأوهـام المنهار.

إنهـا بقايـا صـور رجراجـة، مهوشـة تحضـر.. تهتـز، وتتبـدد.. بقايـا صـور زمـن منسـي، غـابر، إلا أنـه حقيقـي.. بإمكـاني أن أؤكـد هـذا، فـأنين أبـي وبكـاء أمـي، وزيـارات بعض الرجـال الحذرة، وذلك المنظـر الفظيـع الـذي رأيتـه.. تلـك الحـزوز الحمـر فـي جسـد أبـي وهـو عـار فـي الغرفـة وأمي تمسح على الخطـوط الداميـة بمـرهم أصـفر أو أسـود.. لا أتذكر جيداً.. ذلك المنظر المعذب، وأنا أتجسس من خلل النافذة، لا يمكن أن يكون من مخلفات الأحلام.

سـألت.. لـم يجبنـي أحد.. قـال أبـي أنـه مـريض، وقالـت أمـي أنهـم الظلَمـة ولـم أفهـم.. بعـد سنوات طويلـة عرفـت.. حكى لي الحاج محمود. كان أبي يجلس فـي ظل شجرة بعد نهـار مكـدود، يلـف سيجارته عنـدما باغتـهُ... بيك الأزمنـة اللعينـة.. لـم يحييـه.. لـم يسـأله.. لـم يستجوبه.... هـوى علـى ظهره بالسوط وأكمل رجالـه المهمـة.. انهالت السياط على جسـده المضـني وهـو يصـرخ أو (يعـوي) كمـا قـال الحـاج

محمود.

أبي.. نسغ أشجار البيك من عرق أبي، من دم أبي، من عرق البلدة ودمها.. مات أبي بعد سنة واحدة، وبقي باب البيت الكبير موصداً عندما شيعوه.. كانوا عشرة رجال.. أكثر أو أقل بقليل.. جاء رجل من طرف البيك ونهر النساء باسم البيك (لا تصوتن.. إنه يريد أن ينام).

ـ لماذا لم تخبرني قبل الآن؟

ـ وماذا كنت ستصنع لو أخبرتك؟

ـ كان ينبغي أن أعلم.

ـ بصراحة كنت أظنك تعلم.

ـ أعلم أو لا أعلم..

سألت زوجتي:

ـ هل أنا عاجز.

رمقتني باستغراب.

ـ عاجز؟!

وتنبجس الدوامات العاصفة من قلب البيت الكبير. ويهيمن الغبار، يكمُّ مسامات البلدة.. الناس والبيوت والأشجار، وحتى النهر ينحدر متمهلاً عكراً كشيخ منهك.

وبعد أمطار ساخطة انهمرت ثلاثة أيام بلياليها سطعت شمس باردة.. دار سرب الزرازير.. علا وهبط.. كان هبوطاً غريباً، سريعاً.. مصاحباً بالزعيق كأن طاقة رهيبة سحبته إلى المجهول خلف أشجار التوت واليوكالبتوس.. خلف الشرفات الثلاث المعقوفة، إلى سراديب الضياع، وشعرت بكف خشنة تدعك أحشائي.. كنت على سطح الدار.. وقفت مذهولاً يائساً، أحدق بحقد إلى البيت الكبير، مأوى شياطين الموت. حام سرب آخر.. صحت به ابتعد.. ابتعد، وانساب نحو البساتين.. داخلني شيء من الراحة ونزلت.

قلت للحاج محمود:

ـ ولماذا ضربه؟ أيكفي أن يكون ما تقوله سبباً؟

ـ لا تكن لحوحاً.. إنها مسالة قديمة مضت وانتهت.

هل انتهت حقاً؟ وكانت أسراب الزرازير تأتي وأسراب الغاق والعصافير كذلك.. وكانت الفخاة تعبر من شجرة إلى شجرة، ومن بيت إلى بيت.. كنت أصيح بها كلها.. ابتعدي، ابتعدي، وكانت تبتعد.. كانت دائماً تسمعني وتطيع وتبتعد.. كانت الطيور بأنواعها تحلق وتحط في كل ساعة من ساعات النهار غير أنني لم أكن متفرغاً لها على الدوام. ولشد ما كانت فكرة أن تُغوى الطيور وتُهلك في شراك البيت الكبير تحزنني وتؤرقني.

ـ 13 ـ

انتبهت إلى وجود قدور ودلاء وأوان نحاسية مبعثرة في مواضع مختلفة من جبل الحطام هذا.. لمحت طرفاً من قماش اسودَّ تماماً، يبدو أنه كان في يوم ما قريب ناصع البياض. وتحت كتلة حجرية كانت تقبع سكينة كبيرة صدئة. وفي كل مكان كانت تنتشر شظايا زجاج محطم كما لو أنها نُثرت قصداً.. كنت أصعد، متوقعاً في كل خطوة أن ينفتح شدق تحت قدمي ويبتلعني.. كنت أتحسس الموضع قبل أن أطأه مختبراً صلابته قبل أن أُنزل رجلي فيه.. أنا الآن على أطلال تاريخ شائك وملتو لم تكشف فصوله كلها بعد، ولم تستغور طبقاته كلها بعد، أجول بنظراتي في خارطة الفوضى التي أنجزها فيضان نزق وعات وقدري كأنني أبحث عن شيء ما، محدد لا أعرف ما هو، ولكنني إنْ رأيته عرفته حالاً.

لماذا أنا هنا؟ ما الذي أبغيه؟ هل جئت متشفياً مما آل إليه بيت قلقي وبلواي؟ أم أن غايتي هي أن أقطع الشك

بـاليقين وأتأكـد مـن أن البيت الـذي حاصـر أيـامي مـذ بـدأت أحس بكينونتي قد سقط حقاً؟

اســتدرت لأطمــئن أنْ لا أحــد فــي الجــوار يراقبنــي وأيقنت أنني وحدي هذه المرة. وانتـابتني مشـاعر متضـاربة هــي مــزيج مــن الوجــل والارتيــاح والفضــول. وراح قلبــي يعجِّـل بضـخ الـدم فـي العـروق، وألفيـت نفسـي فـوق نثـار الصـرح المخـذول. وفـي الجانـب الآخـر فوجئت بمـا كـاد أن يوقف في جسدي كل أثر للحركة.. تـلال من أنقـاض.. تـلال لا غيــر مــن أنقــاض.. تــلال مــن أنقــاض وحتــى صــفوف النخيــل التــي تــراءت، والتــي يظهــر أنهــا صــمدت بوجــه الفيضـان. وكدت أطلق صـرخة دهشـة، وربمـا أطلقتهـا فعـلاً إلا أنهـا اختنقـت فـي مقدمـة الحنجـرة.. كـان الهـواء بـارداً، وأستنشقت منه ملء رئتـي وأقعيت.. غـرزت أصـابعي. فـي وحل الأنقاض، وجعلت أنبش ثمة.. لا أدري عم كنت أنقب وشــعرت بــوخز حــاد.. ســحبت يــدي كــان الــدم يقطــر مــن طــرف إبهــامي وأمســك بــي الــدوار، وأنســدلت فــوق عينــي ظلال قاتمة.

تـهيـأ لـي أن بكتريـا الخـوف التـي اعتاشـت فـي خلايـاي مـذ رأيـت النـور.. مـذ واجهت البيت الكبيـر.. تلـك البكتريـا باتـت تخـرج مـن فـم الجـرح وهـي ميتـة.. تخـرج بـالآلاف، تخـرج بـالملايين، وتملكنـي ألـم شـامل ربمـا كـان يشـبه ألـم المخاض.. غرزت أصابعي في الوحل ثانية، وليتفتق جـرح آخـر، ولتتفتـق جـروح كثيـرة، لأنفض البكتريـا كلهـا التـي غذتها تحت جلدي كائنات البيت الكبيـر. وعلـى حين غـرة أحاطت أصابعي بمقبض مـا، لسيف أو سكين، أو أي شـيء آخـر.. ركـزت قـواي التـي أملـك فـي يـدي وصـرت أسـحب ذلــك المقــبض.. فــي البــدء تشــبثت بــه الحجــارة والأشــياء الغريقـة، بيـد أنهـا لـم تقـاوم طـويلاً.. استسـلمت لمـد الحنـق الــذي اجتــاحني وأعــاد الصــحو إلــى أغصــاني.. انتزعــت المقبض فـاختض جسـدي كلـه.. إنـه مقبض، سـوط.. أجـل،

وفي برهة كان السوط بيدي.

وقفت.. رفعت ساعدي.. أرخيته، ثم وترته، وهويت بالسوط على الركام.. على قبر الكائنات التي دفنت حية... كائنات شقائي.

فرقع السوط وهو يصفع الفراغ، وعندما اصطدم بالمادة الميتة لبقايا العزة البيكوية المدنسة خيل إلي أن شرارة وجيعة قد انبعثت بفعل الاحتكاك العنيف. ونط تساؤل ملحاح في ذهني: ماذا لو انشقت التلال وخرجت الكائنات المقيتة من سراديبها واقتادتني إلى الداخل.. ماذا لو أجلسوني على كرسي من إبر ومسامير وطفقت العناكب تشدني إليه بخيوط سلكية جارحة.. تساؤل عبر فضاء ذهني وعجبت كيف لم يخلّف ذلك الانقباض والضيق اللذان كان يخلّفهما كل تساؤل من هذا القبيل في السابق.. بدا التساؤل باهتاً وحيادياً وأحسست أن بمقدوري اقصاءه إلى الدرك الأسفل من كياني العقلي وإحراقه هناك وتبديد رماده.. لم أكن منشرحاً تماماً.. كنت مغموراً بأسى صاف، شديد النقاوة وبدا لي أنني سأبكي، وسيتفجر الدمع ساخناً مطهراً.. كان السوط بيدي وأنا أغالب البكاء، ولاحظت أن دمي يخضب مقبض السوط.. ما زال جرحي ينزف، وروحي ترتعش.

بحثت عن البئر التي أشار إليها الرجل.. وجدتها مثلما قال مهدمة ومطمورة حتى لا تكاد تتأكد من أنها كانت بئراً إلى يوم قريب.

وجلت بعينين هادئتين علني أعثر على المداخل الوهمية لجحور المخلوقات التي كانت تقدح من كون مخيلتي لتضطهدني في ليالي الوحشة والصراخ وصدى أنّات المعذبين.

وتبين لي أن الفيضان قد سدَّ قنوات الحياة كلها، وأكاد أقول قنوات الموت كلها الموبوءة في البيت الكبير وكتم

على الأنفاس الكريهة لسكان بيت البيك / الأشباح.. البيك الذي مضى هو الآخر مع الفيضان.. مضى مع السر العجيب.. سر القرون الدامية.

تنقلت بين الأكوام وأنا أضرب بالسوط هيكل الماموث المحطم.. أضرب بقايا الأضلاع النخرة والأنياب المتسوسة التي تفتت تحت عبء السنين. وبغتة تجلت لي الحقيقية – أوما افترضت بأنها الحقيقة –الماموث كان ميتاً من زمن سحيق، وذلك الفيضان العرم لم يفعل سوى الإعلان عن موته، وكشف جثته لأهل بلدتنا المخدوعين.

–14–

عدت إلى المخيم مع سوط أوجاعي.. كان ما يزال رطباً.. نشرته تحت الشمس التي كانت في مستوى سار من التأجج اللذيذ حتى إذا أقبل الليل وتوهجت النجوم تلمست السوط.. المقبض الخشن والجلد الطويل –النحيل.. كان جافاً إلى حد يمكن معه تقطيعه باليد.. وضعته في حفرة أمام خيمتي وسكبت عليه قليلاً من النفط وأشعلت عود ثقاب.. لأحرق هذا الذي ألهب ظهر أبي وقتله ورحت أردد في سكون الليل.. قتله، قتله.. حشرجت النار وانبعثت رائحة دماء.. أغمضت عيني إلا أن ألسنة اللهب لم تغب عن حواسي.. رأيت العناكب تحترق في دوامة النار الصغيرة هذه، والأفاعي تحترق، والكلاب بعيونها الحمر.. كلاب بيت البيك.. تتضاءل وتلج النار.. لتحترق...

بعقوبة/1991

ﻫﻫ

الغجر لن يجيئوا ثانية

-1-

يأتون فجراً، طالعين من خاصرة الشمس وذات عشية يختفون.. يرحلون بلهفتي المجنونة.. لو أتبعهم.. أكون معهم.. منهم، لأنهم وحدهم يملكون الهواء كله والليل كله والآفاق كلها، والسماء.

واحدة منهم أرتني المعجزة في مساء فائر عابث.. كان بين أصابعها السحر وعلى تكويرة بطنها البركان. ومنذ ذلك الحين وأنا أبحث عنهم.

قالت سهى: عنهم أم عنها؟

قلت: عن بقية الحلم الذي تركوه.

أكّدت: عنهم أم عنها؟.

قلت: بل عنك.

وعنها بتّ أبحث.. عن سهى الضالعة بالترحال عبر مسامات الزمان.. سهى المتسربة كالطيف كأنها لم تكن، أو كما لو أنها راحت تقتفي آثار خطاهم، أولئك الغجر المولعين بالمتاهات.. كأنها سليلتهم.

أتراهم نسوها –وهي طفلة تحبو –في فوضى مطاردة ما –يُسقطون خيامهم ويجمعون خلقهم ويحثون حميرهم

علـى الابتعـاد –أو تـراهم ضـحوا بهـا بـين خرائـب مـدينتنا هــاربين مــن لعنـــة موســم شــحيح؟ ومــن يــدري فلربمــا أضــاعوها فــي حمّــى جنــون، هــم الــذين لا يليــق الجنــون بسواهم.

قالت سهى: أتبحث عنهم فيّ؟.

قلت: بل أبحث عنك فيهم.

فـي أخريـات الربيـع مـن كـل سـنة تنتظـرهم المدينـة.. تتطلـع فـي شـغف إلـى أفـق الشـمس حيـث يطلّـون. وحـين يقبلــون تســتعجل المدينـــة رحــيلهم كأنهــا تخــاف فــرحهم.. معصياتهم.. جرأتهم.. أحلامهم.. جنونهم وحريتهم.

تألفهم العصـافير والقبـرات والأطفـال والكـلاب السـائبة التـي تغـادر بعضـها المدينـة لتـرافقهم، ولا تـألفهم المدينـة.. يتحملـون شـتائمها وسـوء ظنونهـا وغيرتهـا وأذاهـا. وحـين يمضـون يلوحـون ضـاحكين فتبقـى المدينـة واجمـة يغمرهـا الأسى لفراقهم والأسف والهمود.

هم وطن يسافر أبداً.. يتحاشـى مفـازات الحـروب ليتبـع حلماً منذ ألف ألف سنة.. أمـلاً يعرفـون هم قبـل غيـرهم أنـه محـض سـراب، وعلـى الـرغم مـن ذلـك يلاحقونـه.. وحـدهم الغجر يلاحقون قدرهم ولا يدعونه يلاحقهم.

البقـاء حصـارهم، وفـي الـدائرة الرائعـة التـي يصـنعون بياغتهم حقد المدينـة إذ تحـث أولادهـا علـى رجمهـم. وتنهـال علــيهم الحجــارة فيخرجــون مــن تحــت خيــامهم يــردون بالحجارة الغاضبة، فتنفرط عصبة الأولاد، وتنكفـئ المدينـة فـي خجـل فتـراهم يخبئـون وطـنهم بـين عجائـب أشـيائهم ليهربوه سراً إلى جنةٍ ليسوا ببالغيها أبداً.

–2–

دائرة الغجر بهرجة ألوان وغرائب خلف ربوة السكة

الحديد. وكانوا ينزلون في المكان عينه دوماً خلف ربوة السكة كأن لهم بهذه البقعة صلة سرية.. ينتشرون بين حميرهم ويلعبون صائحين.. لا أحد يشاهد هذا الحشد المتآزر من الحمير إلاّ مع قدوم الغجر.. خيول قليلة تزهو في خبب راقص وسط الحضور المذهل في رتابته وسلامه للحمير.. وكلاب متبخترة تحيط بالدائرة الآسرة.

وجاءت..

من هناك جاءت تمتطي حمارها، هائجة في عنفوان الماء عند المضائق المباغتة.. الشهوة في تطلع الصدر، وفي الثقل المفروش للردفين على ظهر الحمار.. الشهوة في الاضمامة المغرورة للفم.. الشهوة في الانهمار اللامع الوفير للشعر.. الشهوة في الانفراجة الحتمية للفخذين وهي راكبة كأنما على صهوة العالم.

والحمار يتحمل هذا العبء اللذيذ.. وانتظر الحمار ساكناً أو ربما نائماً وهي تعيط بالرغبة تأخذني لأول التيه.

سهى.. أنت آخر التيه.. خلاصة كتاب الرحيل.. خلاصة سلطة النساء وفتنتهن وشهوتهن، وكيدهن الباهر العظيم.

تلك المرأة في مساء المعجزة صرخت فنبحت كلاب طليعة الليل، وأجفل طير نائم أعلى شجرة التوت.. تحت التوت كنا.

قالت: هذه ليلتنا الأخيرة هنا.

قلت: ماذا لو أجيء معكم.

لوت فمها، وفي عينيها هدر بحر العسل.

قلت: سهى لا تنظري هكذا.. بحر العسل يقسرني على الصياح.

قالت: هيا، صح.

صحت: أحبك سهى.. أحب جنونك الغجري.

ضجت العصافير أعلى أشجار التين والنارنج.
قالت: أنت المجنون.
قلت: يا ليت..
في ليل الجائحة ذاك كنت أتلفت.. قالت الغجرية:
-الحرية أن لا تخاف.
قلت: سأجيء معكم.
قالت: لن تستطيع لأنك لم تجن بما فيه الكفاية.
قبلت شلال الحليب على ساقيها.
قبلت على عجل دفق النبيذ على ساعد سهى.
قالت: لنمض، فضحتنا.

قلت: أنت المعجزة ثانية ومشينا في ظهيرة الحديقة.. ما كنت أتلفت خوفاً ولم تكن هي الأخرى خائفة.. مساحة الحرام التي تركتها الحروب فيما بعد ما كنّا نفكر بها.. وما كنا ندري أن الأشراك والألغام ومصدات النار مخبوءة في عصب الكون.. كنا نحلم.

قلت لها: ليكن لنا الهواء كله والنور كله والليل كله والآفاق كلها.. والسماء.

-3-

النجوم كانت بعيدة.. السماء موسيقى سكنت. والغجرية بعريها المتمرد الأبيض في برد الدالية راحت تصلبني.. تحتوي مساء العافية، وكل مساء سيأتي.. حلماً تصير.. حنيناً غائراً كطين النهر.. مستحيلاً غاوياً، لا أقدر على الإمساك به إلاّ بعينيك سهى.. في فائض العسل والنبيذ الطافح على ساعديك ورعشة الحرية العصية.. هذا الفرار منك.. إليك، و"الحرية أنت" قلت لها. وكنت غرّاً في تمزق المراهقة ورنين صوتها يرهقني.. أيقونة كانت

تحت شجرة التوت.. قارورة خمر تنمّل دمي حتى هذه الساعة.. سهى هيّا.

قالت سهى: أحقيقة كانت؟.

قلت: موتاً كانت.

قالت: وأنا؟.

قلت: هيا.. سأصرخ.

وصرخت: أحبك سهى.. أحب قافلة الغجر تلوح في أفق نظرتك، وهذا الخبل وأنت تغرقين بالضحك.

وبالضحك تغرق سهى ترفاً أو خجلاً تبوح بطفولتها.. هكذا كلما تشطح وهي تمشي كأن الماء يغمر قدميها.. طفلة تبعثر أحلامها في الريح وتملأ صباح الأطلال بأنفاسها.

في صباح الخواء ذاك لم يتركوا شيئاً.. حتى الخرق أخذوها، وعيدان الحطب وأوتاد خيامهم.. لا شيء للذكرى سوى مذاق الدهشة من حليب ساقيها.

ربما كنت أختها الصغرى –سهى –غجرية النجوم البعيدة تلك التي صيّرت السماء موسيقى أراها إذ فاجأت وقاحتي.

-ماذا لو.. أيتها الغجرية.

-تعال.

قالت وجرتني، والشمس تسقط حمراء خلف الدالية.

عبرنا من ثغرة في السياج.. خضنا مستعمرات الحلفاء أنا وهي وحمارها.. فكرت إن لم يكن هناك من رآنا.

قالت لي: لا تخف.

قلت في سري: هي تقرأ الأفكار إذن.

قالت: تلك هي حرفتي.

ضحكنا معاً.. ثم...
على مهل تعرت لأصحو على رجولتي.

-4-

الغجر رؤى سنوات ما قبل الدم والرعب والبكاء.. تموج الأخضر حول راحلة العمر ورشح الموسيقى.. ندى العافية على أزهار البرايا قبل حلول موسم الغبار.. المشهد الواسع وراءك سهى.. المشهد الغافل عن صدى طبول الحروب الآتية.. هدير القطار المارق في الضياء يحجب دائرة الغجر، وحتى تعبر آخر العربات يكون المنظر كله قد تبدل.. الغجر في حلة جديدة، والحمير توحي بأغنية أخرى للسلام..

وكنا نغني –سهى -.. يتلاحق التصفيق بعد رعد الربيع.. نقول: ترابنا سيحبل بالفطر والكمأ والخصب، ونبقى نغني، ولا نخاف.. وكنت خائفاً، قالت:

-الحرية أن لا تخاف

الحرية أنت –سهى -.. الخبل الحلو يشدني إلى الأشياء، والأشياء موسيقى تغلغلت في الضوء والهواء والآماد والأرصفة والواجهات، وهؤلاء العابرين خلل حلمي /حريتي.. في بهجة حضورك

-سأعلمك الجنون.

وكنت مجنوناً في انتظارها...

-5-

وجاءوا.. سنة بعد أخرى، قوافل من شجن، يغنون، وتشتعل سيقانهم رقصاً وحرية.. يبيعون الخناجر وأسنان الذهب، ويستجدون الخبز، ويقرأون بخت الذين لا بخت

لهم.. يقايضون الخبز بالأحلام.. السادة المطلقون للأحلام هم، والمتحررون أبداً من سطوة الدراهم. وذلك الشيخ ذو النظرة اللامعة صرخ بامرأة ناولته قطعة معدن لاصف.

-أريد خبزاً يا امرأة.. الفلوس لكم.. الفلوس ملعونة.

كم انتظرتها امرأة مساء الجمرات تلك.. المرأة التي في دوامة رائحتها نسيت أن أسألها عن اسمها، وبقيت أشم الرائحة كلما حل الغجر في جنوب المدينة، أو هاج طائر في سكون الليل.

استوقفت الشيخ الذي رفض الفلوس ورضي بالخبز مالاً.

-يا عم، لم لا تأتي تلك المرأة؟.

احتواني الشيخ بألق عينيه الفرحتين.

-أية امرأة يا ابن أخي؟.

-تلك التي...

ضحك الشيخ ووضع يده على كتفي.

-أحمق من يعشق وهو سجين.

-أين هي؟.

- بل أين أنت؟.

تركني وهو يصيح:

-أريد خبزاً.. الفلوس ملعونة.

ربيعاً بعد آخر كان السجن يضيق، والحنين يغدو وجعاً، وطائر ذلك المساء ينأى حتى رأيتك "سهى"، وعثرت على وطن الغجر في استرسال شعرك، وفي غواية الأفق إذ يحتفي الغجر بجنونهم، وترقص تلك المرأة البعيدة حد الهلاك.

كيف لي أن أصدق من غير أن أموت؟.

كيف لي أن أصدق إنك أنت الأخرى لحقت بالغجر إلى

بلادهم التي تأنف من أن تحنط في الخرائط.. بلاد حدودها الهواء كله والنور كله والليل كله والآفاق كلها، والسماء.

– 6 –

وتسللت –سهى –إلى ما وراء الأشياء كأنك كنت كائنة من حلم خرجتْ من مخمل حلم لهنيهة هي ما لبث الحلم وعادتْ ثانية إليه.

أتحرى بمجسة خارقة في صفحات الكتب التي قرأتها ومساند المقاعد التي جلست عليها. أبحث عن ملمس أصابعكِ علّني أحتويكِ مرة أخرى وأعيد تكوينكِ.. علّني أخبئكِ في قرار مكين هو من خاصتي، ولا أدعك منه تفلتين.

غير أنك تماديت – سهى -.. جرثومة الغجر استيقظت في دمك فتواريت.. ضقت ذرعاً بأهوائي وأحلامي.. لم تكفك مديات الحلم التي رسمتها، وفضاء العشق الفسيح الذي تصورت أن لا نهاية له... كيف قدرت على تخطي لا نهاياتي.. عرافة الغجر الجميلة لما تلمست خطوط كفي في الظلام قالت:

- ستتعبك غواية النساء، وستنزلق الأرض أبداً من تحت قدميك.

ساعتها كنت قد بارحت لتوّي هول النشوة.. انتابني الفزع.

قالت: ذاك قدرك فعشه بحرية.

الحرية تشظت في كرنفال القنابل، وحلقت سهى مع بقية الطيور الناجية، والقطارات غيرت مساراتها، والغجر تفرقوا متنكرين للربيع الذي بات يشيخ، وأنا تشردت في قفار المعارك.. نزفت ذاكرتي، ونثرت أحلامي مع الرصاص.. عبأت كوابيسي بالأنين وعواء الجروح والرؤوس المقطوعة، وتسربلت بالخوف.

-7-

كلما استعدت صورتك –سهى -. أراك تحت سماء عريضة.. الأرض مفتوحة لهواء وضوء يسرفان في اللعب، والعشب زغب يستطيب عري قدميك، والزرقة لا تكف.. لا تكف..

سهى.. تحاصرين صمتي الهائج بقلق عينيك.. بنزوة الغجر الرحل.. بالشغف الرهيف يصلك بالأقاصي كما لو كنت تخترقين بي/ معي حواجز الليل والضباب وأسوار المدن اللامرئية ومخافر شرطة الحدود تبغين زمناً لا يروّض وصهيل حلم يبهجك التعب الذي يخلّفه في ما وراء الجسد.

انتظرت بين حرب وحرب قافلة الغجر من دون جدوى، وانتظرت بعد حرب وحرب ولم يأتوا..

كان آخر الربيع وضجة زرازير الفجر تدفعني إلى جنوب المدينة.. رأيت امرأة على حمارها تعبر ربوة السكة الحديد.. كانت تعبة من سفر أو عمل أو همّ عميق.. كانت شاردة البال لا يثيرها وجودي ولا تأبه لقطار ضال قد يقبل في أية لحظة ويهرسها.

في دخيلتي قلت: مذ انتهت حروبنا المجيدة والقطارات لم تعد تأتي.

ومن غير أن تلتفت إلي صاحت: يا هذا.

اقتربت بوجل واضطراب.. هالني الظلام الشاسع في عينيها.

قالت: أيها التعس.. الغجر لن يجيئوا ثانية.

وقبل أن أقول أي شيء لكزت عنق حمارها فابتعد بها وهي تتمتم أو تردد كلمات أغنية حزينة. ولعلها كانت تلعن وتشتم.. ووجدتني ألعن، وأشتم.

(1998)

شاعر

"إلى الشاعر علي فرحان"

ساعات مضنية استغرقتها المرافعة.. كان في قفص الاتهام، وكانوا في الطرف الآخر، خلف منصتهم الفارهة، قضاة ثلاثة بجلابيب سود.. بغتة قال أحدهم:

-وتدّعي أيضاً أنك شاعر.

اعتراه الذهول فلم ينبس بكلمة.. أول مرة مذ أوقفوه وراء القضبان يشعر بالعجز عن الكلام.

علّق القاضي الثاني ساخراً.

-هل لك أن تبرهن لنا أنك شاعر؟

قهقه القضاة الثلاثة، أما المتهم فقد أمسك الخدر بفكه، وتهدلت شفته السفلى.. رفع يداً مرتعشة إلى فمه وكأن بين أصابعه سيجارة... ودَّ لو أنَّ بين أصابعه سيجارة حقاً، يعبُّ من دخانها وينفثه في وجوههم، بيد أن يده سقطت إلى جنبه، ثم أخذ يسعل.. هنا صاح القاضي الثالث:

-ما أنت إلاّ دعيٌ سافل.. خذوه.

اقتاده رجال غلاظ إلى زنزانة مظلمة رطبة.. في الزنزانة أحس بكينونته مترعة بالشعر حدَّ الغليان.. حد البكاء.

بعد لأي عثر في قاع جيبه الفارغ على قطعة صغيرة باقية من قلم رصاص خط به على الحائط قصيدة سمّاها (أشجان البنفسج).

مات الشاعر فظلَّ الشعراء السجناء نصف قرن في مرورهم الاعتباطي على الزنزانة تلك، يقرأون (أشجان البنفسج) ويبكون. وعندما صدر أخيراً قرار بهدم السجن ونقل السجناء إلى مكان آخر، اندفع بلدوزر يقتلع حيطان

السجن.. عندها تناثرت كلمات القصيدة بين الأنقاض.
وفجأة من بين الأنقاض انبجست آلاف من أزهار البنفسج الرائعات.

(1993)

ﮦﮦ

رجل الحجر

منذ متى أنا هنا؟ لم أعد أذكر، فتلك الأشياء الغامضة الحلمية لا بد أن تكون قد حدثت في زمن غابر، بعيد.

أحسني مشدوداً إلى المقعد الحجري والمنضدة الحجرية، والضوء الشاحب، والرائحة الحامضة للأشياء.. ما أعيه هو فقط هذا الانشداد "هنا"، و"هنا" هي الأخرى معلّقة كأنها اللامكان.. أفي بارٍ أنا؟ أم في كهف عتيق؟ أم في مرقص؟.. ثمة حلبة للرقص ولكنها خالية.. ربما كنت في مشرب مرفأ منسي.. في أية بلدة؟ في أية قارة؟ لا أعرف.

صدع يتعرج بدءاً من مقدمة اللسان ويضيع في تيه الدواخل العميقة.. صدع وجيع كما لو أن سائلاً حارقاً يتدفق عبره، وصداع مشاكس ينبض في ما وراء الجبهة.. خلف العينين مباشرة.

في زاوية ما جلبة.. صوت أقداح تتكسر أو زجاجات نوافذ.. صاحب المكان –أهو صاحب المكان حقاً؟ -بعينيه الثعلبيتين لا أجده مكترثاً. وأغنية مشروخة تنبعث من الزاوية ذاتها، أو من زاوية أخرى.. تبدو الزوايا هنا كثيرة.. مخابئ مظلمة لعل فيها بشراً يمارسون لعبة التواري.. آخرون.. لا شك أن هناك آخرين.. الآخر الذي

هو طيف يتسرب كلما حاولت التقاطه أو الإمساك به.. أية هوّة مرعبة هذه التي تربك التواصل بيني وبين الآخر؟ من هو الآخر؟ أهو أناي المشطورة أم مخلوق الكابوس؟

أفرغ كأسي السادسة في جوفي ثم السابعة.. أظن أنها السابعة ثم الثامنة. أو هي العاشرة؟ يصرخ أحدهم عند قفاي تماماً.. صراخه جاف وممزق.

ماذا يريد؟.

ألتفت.. لا أبصر أحداً.. أغمض عيني ثم أفتحهما.. الضوء البارد ينقض علي بمخالب قاسية.. النادل يقترب مني.. أضيّق ما بين جفوني لأعاينه ملياً.. لأوجه له.. دائرة شاحبة بهالة سوداء وثقب أشد سواداً.

-نعم؟!

-ماذا؟!

-ألم تناديني قبل قليل؟.

-لا.

-كيف.. وهذا الصراخ؟.

-لم أكن أنا.

-ليس في هذا الجانب من المكان غيرك.

-أنت واهم.

-أنا آسف.

أوقفته وهو يهم بالابتعاد.

-حسن.. أجلب لي زجاجة أخرى من فضلك.

راح يهز يده.. هكذا خيل إلي.. أيستخفف بي؟. أمسكت القدح وألقيته على الأرضية الحجرية.

هاهو صاحب المكان –أو من اعتقدته كذلك – واقف عند رأسي.

-إن لم تكف سأخابر الشرطة.

-سأدفع ثمن القدح.

-ستدفع ثمن كل ما كسرت.

-لم أكسر غير هذا القدح.

-آمل أن تنام أخيراً في مركز الشرطة.

ألوذ بالصمت.. أضع جبهتي على طرف المنضدة.. أحس بشرخ لاذع يمتد من سقف حلقي وحتى مجاهل الأحشاء.

-أنت.. أنت..، لمَ تحرم نفسك لذة اللحظة.. كل لحظة؟

تنفذ هذه الكلمات إلى وعيي مع وقع نقرات أصابع قوية على المنضدة.. أرفع رأسي.. أجدني إزاء رأس كبير وأنف ضخم وعاصفة من شعر أشهب كثيف.

-مقابل كأس أبيعك حلماً.. هل تشتري؟

-جلست إلى مائدتي من دون استئذان.

-أتريد أن أغادر؟

-لا... لا.. ابق.

-هل تشتري؟

-أجل.. قل لي ما هو هذا الحلم؟

-ليس قبل أن أكرع الكأس.

يعب الكأس في جوفه.. يقهقه عالياً. ثم ينفث آهة ساخنة.

-أغمض عينيك، وتخيل.

-أتخيل ماذا؟

-أغمض عينيك.. أغمضهما.

أغمضُ عيني.

-تخيل أن هذه المدينة لك، بشوارعها وقصورها ومتاجرها وناسها.. حتى النساء كلهن لك.. تخيل.. تخيل..

تخيل.

لست قادراً على التخيل، وصدى كلمة "تخيل" يتردد في أذني ثم يتلاشى شيئاً فشيئاً.

بغتة تتكشف القتامة الراكدة عن نور خاطف.. نور ساحر، مكور كما الوجه بعينين آمنتين وشعر كأنه نيزك مسترسل.. وهج هائل عظيم يقوّض الظلمة المعتمة لهنيهة، ثم يغور، وإذ ذاك يرن صوت امرأة.. صوت هارب من ساعات لم تحل بعد.. عذب يهدد الضجيج..

يطبق الظلام أثقل مما كان، ويتفجر الضجيج.

أفتح عيني.. أُفاجأ بالرجل – بائع الحلم – قد اختفى، وجلس في مكانه رجل آخر.. رث بلحية شعثاء ومحجرين معتمين.. إنه يحدق فيّ ببلاهة وفي حجره هر نائم.. كفاه المعروقتان تقبضان على الهر بعناد.

لماذا يحدق في هكذا؟. أهو حقيقة أم تراه من شطحات الخيال، تسرب خلسة من جمجمتي ليناكدني.. أتثاءب.. تمط السخرية شفتيه بشكل مقزز.. أيعرفني؟ يظهر أنه يعرفني.. أأعرفه؟. أركز النظر فيه.. ليس بمقدوري تكوين صورة واضحة عنه. ملامحه تغيم وتتداخل.. أهو الرجل نفسه – بائع الحلم -؟. ولكن من أين جاء بالهر؟ أكان الهر نائماً في حجره منذ البدء وأني ببساطة لم ألحظ ذلك؟. ولكن كيف؟ إن شكل هذا الرجل يختلف عن شكل بائع الحلم.. هل بإمكاني تذكر شكل بائع الحلم؟ أحاول استعادة ما كان عليه وجهه من دون جدوى، غير أنني أستطيع الإقرار بأن هذا الرجل ليس هو ذلك الآخر – بائع الحلم.. هل أستطيع حقاً؟.

لماذا لا أسأله..

-ثم ماذا؟.. ماذا بعد التخيل؟

لا يرد.. ربما كان مصاباً بالصمم.. أهو ضرير أيضاً؟. لا أكاد أرى عينيه، بيد أنه يحدق في.

-أنت يا أبا الهر.. قل لي. أتعرفني؟

لا يرد.. أصرخ.

-بحق الأنبياء ماذا تريد؟

لا يرد.. أهمس.

-أعتقد أنه من الممكن أن نتفاهم.

لا يرد.

-أترغب في شراب أو طعام؟

لا يرد.

-حسن.. ابق حيث أنت.

ويخطر لي أن أترك المكان، ولكن إلى أين؟ ألن أطالب بدفع الحساب، وأنا جيوبي خاوية؟ هل أعرف أحداً في مكان آخر؟. هل ثمة من يقبلني في مكان آخر؟ وتملؤني هذه التساؤلات بخوف مبهم. وأفكر: أنا مستمر في البقاء هنا تأجيلاً لكارثة محققة ستقع.. أظنها ستقع.. وربما لا تقع.. من يدري.. إلى متى سيمهلونني هكذا؟ أود لو أن الزمن يتوقف، أو أن تحدث معجزه خارقة.. أن تمتد يد خرافية مثلاً وتنتشلني من هذا الحصار. لماذا لا ألجأ إلى حل وسط؟

لأبحث إذن عن حل وسط.. لأجرب أن أنام.. أنام؟!! خطوات تترى، ولا أثر على ضباب الذاكرة.. من أين تتدفق الكلمات إذن؟ أي عالم دفين ذاك الذي يرقد بشسع الموت ويفلت -كما الأحلام -بعض أسراره حين تثقل عليه. وها أنذا أشعر أن بين (الآن) و(ما سيأتي) و(مامضى) مسافة لن تخرق إلاّ بسلطان.. وبين (الآن) و(ما سيأتي) فخاخ لن يقطعها إلاّ جسر من رؤيا.

وعلى حين غرة يجتثني من استغراقي صوت حلو يسري في دمي سرباً من الرعشة.

-امرأة في الخارج تريدك.

وجهه الدائري من البلور، وشعره مقصوص وممشط بعناية أشبه ما يكون بالملاك.

-امرأة.. أية امرأة؟. أي خارج؟

-تقول أن اسمها سناء.

-لا أذكر امرأة بهذا الاسم.

-إنها واقفة تحت المطر.

-أتمطر؟

-المطر لم ينقطع منذ أشهر.. ألم تخرج من هنا منذ أشهر؟.

يكركر بجذل.

-سأخرج معك لأرى.

-حسابك مدفوع.

قالها النادل وهو يحرقني بنظرة معادية.

-من دفعه؟.

-لا عليك.

-الباب من هنا.. من هنا.

يدلني الطفل على الباب.. أخرج.. يهاجمني نور صارخ كأنه كان في انتظاري لهذه الغاية.. أغلق جفوني من هول سطوته ثم أفتحها.. أفاجأ بأن النور قد استكان تماماً، وأن الرذاذ يهمي بتؤدة، وهي واقفة.. امرأة باسقة كأنها قادمة من أفق قدسي.

أية ابتسامة مذهلة هذه التي تشعشع على شفتيها؟.. يداهمني الدوار.. أضغط على صدغي بأصابعي.. أرفع رأسي.. تبهرني طلعتها وهي ثابتة في احتفال المطر، وخلفها تماماً ينتصب جدار مضاء وقد انبثق منه شاب يافع، جعل يحدجني بتحد.. يتهيأ لي أنه سيصرخ بي.. إنه

على وشك أن يثب وقبضته مضمومة يخفي فيها شيئاً ما، أتوقع أنه سيقذفه.

وتركض القشعريرة في شراييني.. ماذا لو أنه أطلق حجراً وشج به رأسي.. لا أدري لم أشعر بأنه لو فعل ذلك فإنه سيخلصني من هذا الصداع المقيم.. إن قدراً من الدم الفاسد سيخرج بلا ريب من الجرح المرتقب.

-هل ستقف هكذا إلى ما شاء الله.

ليس هذا بصوت آدمي، بل هو نداء آت من أعماق نقية.. ينفرج دمي ليجيبها إلاّ أن جسماً غريباً يمس رجلي ويجعلني أجفل.. إنه الهر.. هل تمكن من الإفلات من قبضة الرجل الرث، أم هو الذي أطلقه؟ هيئته لم تكن تدل على أنه من المحتمل أن يطلقه.

يمرق الهر عبر الشارع مسرعاً.. كم هو جميل بشعره الأبيض الكث وأذنيه المنتصبتين وهو يجري ويتسلق الجدار المضاء برشاقه بمحاذاة الرجل الذي يبدو وكأنه على وشك إرسال الحجر باتجاه رأسي.

-هيا لنسر أم أنك تعودت على الكسل.

-من أنت، سيدتي؟

-عجباً.. أتمزح؟

-قطعاً أنا لا أمزج.

-ألا تذكر؟

-ماذا؟.

-سناء.. أنا سناء، ولحظاتنا الرائعة في تلك الرحلة.

-أية رحلة؟

-عبر البلاد.. أوه، كم غدت ذاكرتك ضعيفة يا عاصم.

-أخشى أنك طلبت الرجل الخطأ.

-يا عاصم.. يا عاصم.. أنت الرجل الذي أقصد.

-ماذا تريدين؟.

-لنسر أولاً.

أتفرس مرة أخرى في الشاب اليافع على الجدار.. أتمنى لو أنه يشج رأسي فعلاً بالحجر المخفي بين أصابعه.. إن هذا الصداع اللعين سيزول عني كلياً إذا ما فعل ذلك.

-هيا.. مالك؟

-كان ينبغي أن تكون معي مظلة.

-على العكس.. أهناك أجمل من السير تحت المطر؟

جرس صوتها يخترق مساماتي إلى حيث البؤرة المتحكمة بالدوار.. أنا أشبه بمن يفيق من الغيبوبه.. الشارع يكتسب حدوده وحلته، وينفسح المدى أمامي واضحاً إلى حد ما.. السيارات قليلة، وكذلك البشر، إلا أن هناك سيارات على أية حال، وكذلك بشر.. أشعر أن لي قدمين رغم ارتباك خطواتهما ستعينانني في الطريق، وأروح أجرجرهما بصعوبة.. أراوغ فيهما الثقل العصبي وأنا أترنح كأنني أتعلم المشي من جديد. وعلى امتداد الرصيف تتوزع برك صغيرة من مياه المطر في أغوارها تتراقص المصابيح.. وتبدأ سناء تتكلم، والمطر ينهمر.. يتغلغل في العروق شيء من الانتعاش.. أنا على استعداد أن أمضي العمر كله هكذا، أسير معها وهي تتكلم تحت المطر.. تكلمي وليستمر المطر في الهطول حتى يُزال الصدأ وهذا الصداع.

صوتها يقتنص انتباهي إلى أن يخطف الشاب الملثم في ذاكرتي، وفي معاودته المرور يرشقني بالنظرات الغاضبة عينها.

يطالعنا قوس شامخ، مدجج بالأضواء الملونة، يطوق الشارع بحنو.. أقف كأن قوة عارمة تشل أطرافي.. إنه الشاب اليافع.. هناك، في قلب الذروة من القوس بالعينين

الجريئتين ذاتهما، والقامة المشدودة، واليد المستعدة لقذف ما تحمل.

تقف سناء هي الأخرى.. نحن مبللان تماماً.. وتترجرج الصورة ثم تتوضح.. تترجرج وتتوضح، وسناء تؤثر السكوت، وربما هي في انتظار أن أتكلم أنا.

أغلق عيني بقوة.. أحس بضربة مدببة، مباغتة على الجبين وبألم نافذ يرجني، وبفورة الدم وهو يتدفق، وبفيروسات الصداع وهي تتكفئ، وأحدس –فكرة ثابتة، جليلة كعيني سناء تتسلط –"إن أمراً ما غير اعتيادي، لا أدري كيف، لا بد أن يحصل".

(1994)

ﮋﮊ

تحريض

مؤكدٌ أنها كانت تتبعني، ومؤكدٌ جداً أنه كان يصرخ بي:

ـ اطلق النار.

أعرف تماماً من يكون، غير أنني تساءلت: من تكون هي؟ وماذا تريدُ مني؟

أنا لا أبحثُ عن مسوّغ مُرضٍ لجريرتي، ولكنني أقرُّ حقيقة واقعة... لقد كانت معي دوماً.. إلى جانبي.. قربي... في أعقابي، فكلما تلفّتُ وجدتها إزائي، وكان هو يحرضني: اطلق النار.

أدخلُ محلاً لبيع التحف، أباغتُ بها تتصنع النظر إلى الأشياء، وترنو إليَّ من طرف خفي... أدلفُ إلى زقاق عرضي، تدلف إليه كذلك.. أجلس على مصطبة في ساحة النصر تجلسُ هي قبالتي.. أقفُ في مواجهة نصب الحرية، أتأمله. تقفُ هي أيضاً وتترصدني عن كثب.. انحدرُ إلى نفق التحرير.. تنحدر ورائي... أخرج من الجهة الأخرى فتفاجئني هناك ببنطالها الجينز، وقميصها المفتوح من الأعلى قليلاً.. أتجه نحو شارع الرشيد تتجه معي إليه خطوة بخطوة.

أتقصد إغرائي؟ أم تستدرجني إلى شرك غامض؟ أم تراها مكلفة بمهمة استخبارية دقيقة؟ أم تحاول دفعي إلى هوّة الجنون؟... ولكن .. لماذا؟

هل كانت سيئة النية تلك المرأة الوارفة بحذقِ عينيها ونعومتها القاسية؟.

سنة أو أكثر ظلت تحاصرني، فأنّي رمتُ ضيقت عليَّ حدودي.. لكأنها كانت تعرّيني أو تفضحني، أو تدينني.. كانت تلك المرأة الباهرة الصامتة تشحنني قلقاً وتزيد من اضطرابي، وتجعلني أحس بالاختناق.

لم أسمع صوتها سوى مرة واحدة، أو لعلَّ تلك النفحة الرقيقة الباترة كانت محض وهم.

دنت مني حتى لم تبق بيني وبينها إلاّ مسافة اشتعال. وفي ضجة محطة (غربي بغداد)... في أوج احتدام اللغط وصياح الباعة تماوج ذلك الصوت واضحاً، نافذاً.

ـ إلى متى هذا الفرار؟.

لكأني صحوتُ لحظتها.. أردتُ أن أقول شيئاً غير أنها تبددت في ظهور عشرات السيدات الأنيقات، المسرعات نحو القطار الذي أطلق صفارة الرحيل.

لبثتُ ذاهلاً حتى خيّم الصمت. وكنتُ وحدي حين جاءني الحارس:

ـ ماذا تنتظر؟ ليس ثمة قطار قبل تسع ساعات أُخر.

***

النهار بعيد، والشمس كاوية، والأشجار في مواجهتنا ملتمّة وكثيفة. والذين حولي يطلقون. وكنتُ وحدي جزعاً أشعر بالانهيار فراح يصرخ بي :اطلق النار.

وأطلقت.. رأيتُ الأشجار تلتم أكثر.. كانت تنزفُ خضرتها في الضوء، وبقي يصرخ بي: اطلق النار.

مذ أطلقتُ النار ودمها المتوهج يستحيل إلى حشد من

علامات الاستفهام، ينتهك صحوي وفوضى تخيلاتي من كانت؟ ومن كنتُ أنا في تصورها؟.. أكانت محكومة بموجهات قوى خفية تعمل للإيقاع بي؟ أم أن وازعاً ذاتياً كان يدفعها إلى ملاحقتي وتدميري؟

كدتُ ذات مرة أن أجرها من ياقتها في مساء الأعظمية المزدحم، وفي مرة أخرى فكرتُ أن أصفعها على وجهها لولا أنني ترددتُ في مواجهة جمالها الكاسح.

قلتُ سأغتصبها، وعشت حلم التمرغ على جمرات جسدها اللاهب ليالي طوالاً. ولم أفعل... ما كانَ بمقدوري أن ألمس تلك الفتنة المتمنعة قبل أن أُصاب بالدوار.

***

قال المحقق ساخراً:

ـ لم نجد في المكان جثة امرأة، ولا أثراً دامياً، ولم يبلّغ أحد عن اختفاء امرأة بالمواصفات التي ذكرت أيها الدعيّ المخبول.

قالها وأمرَ بحبسي ثلاثة أيام لتقديمي بلاغاً كاذباً وإزعاجي السلطات.

خرجتُ من غرفة التوقيف حائراً. ومن ساعتها، والمارة في الشوارع كلها يسلقونني بنظرات الاتهام، مستنكرين جريمتي .. بيد أن المحقق ما يزال لا يصدق.

أمسكتها من معصمها فأذعنتْ... مشيتُ فمشتْ ولم تمانع.. نظرتُ إليها.. كانت تبتسم.. انفردتُ بها تحت جسر الجمهورية، وتهيأ لي أنها كانت مسرورة.. كان الضوء شحيحاً.. أغمضتْ عينيها وانفرج فمها.. أخرجت مسدسي وصوبته نحو جبينها.. فتحتْ عينيها.. استحالت الابتسامة على وجهها إلى تعبير كالح.

صرخ بي: اطلق النار.

وصاحت هي: لا.

قلتُ للمحقق: كان يصرخ بي " اطلق النار".

قال: من هو؟.

قلت: هو .. هو..

نفذ صبره، وكاد يضربني .. وأخيراً سأل:

ـ والمسدس؟. أين هو المسدس المزعوم؟.

ـ المسدس ؟!!.

حاولتُ أن أتذكر من أين حصلت على المسدس؟، وأين خبأته؟ وإنْ كنتُ أضعته أم لا ؟ حاولت أنْ أتذكر ما إذا كان معي يومها مسدس حقاً؟.. الحقيقة أنني لم أستطع أن أتذكر أ ي شيء عن المسدس.. شيء واحد أستطيع تذكره الآن، وهو، أنه كان يصرخ بي طوال الوقت بإلحاح قاسٍ : اطلق النار. (1997)

ﮧﮧ

أحابيل المساء

ـ1ـ

خمس دقائق، لا غير، تفصلني عن درجة التوقد.. عن التحول والخلاص.. ستأتي .. لا شك أنها ستأتي، فهي التي اختارت الوقت والمكان.

ـ موعدنا قرب محطة الوقود.

هكذا اقترحت.. لا يهم.. المهم أنها ستأتي، ستطل من أعماق الزحام بقوة الوهج الذي فيها، وها أنذا بكليتي متأهب لأن أتلظى!.

ـ2ـ

قد أكون على يقين قاطع من أنها ستأتي، ولست في ريب من الوقت والمكان، فهي التي أصرت.

ـ انتظرني ، قرب محطة الوقود.

ـ غريب .. لم؟.

كركرت.

ـ من أجل أن تكون البداية حريقاً.

اللهب في صدري يتحشرج.. يتحفز للانقضاض على

لوثة الماضي وهشيم غابته الدكناء.. عبر الزجاج الأمامي للسيارة أراقب المارة، أو / أترقب النار التي ستتشق صفحة الجليد وتحيل المدينة والعالم.. الأيام والساعات.. المشاعر والتصورات إلى ضرام رائع.

ـ3ـ

ساعة فاجأتني:

ـ ألو .. مساء الخير.

كدت أسقط سماعة الهاتف من فرط الدهشة.

لفحني صوتها..سرى دفئاً لاهياً يرج بلادة الدم والخلايا، حتى إذا ضحكت تحطمت أوثان كبيرة، وصارت الأشياء غير الأشياء، والناس غير الناس، وأناي غير أناي.

داخل سيارتي المركونة إلى جانب الرصيف مازال البرد والتوجس، و الرعشة.. رعشة القلب بسبب البرد أو التوجس.. ستأتي لتمحق البرد، وتجعل من التوجس أنغاماً وتحتوي الرعشة..

ستكون الرعشة ابتهاجاً وأغنية.

مازلت أرتعش، والدقائق الخمس انقضت، والزحام جليد متحرك تحت بقايا الأشعة المراقة لشمس تنحدر.

قد تأتي .. أو لا تأتي.

ـ4ـ

أغمضت عيني، ولم أفتحها إلاّ بعد مرور خمس دقائق أخر. قلت في سري: ((خمس دقائق ليست بمعضلة في مقابل ذلك الضياع المديد لسنوات العمر)).

ستأتي.. أريدها أن تأتي.

أيعقل أن تخلف موعدها الأول معي؟ شهور طويلة وهي تتمنع .. توغل في اللعب.. تمسك الطرف الآخر من الخيط المتوتر، وتظل بعيدة مثل حلم من زمن الطفولة.

بيني وبينها مسافة تردد وانجذاب، وأسئلة محيرة، ورغاب صاهلة، وأشياء قابلة للاشتعال.. بيني وبينها عصر من الحروب، وبقايا شتاءات أليمة في الروح، ووعود ارتحالات لم تتم وكل دقيقة تمر طوق يصغر ويضغط ويهرش العظام.. كل دقيقة فتك لا يرحم، وخيبة واستعادة للخسارات.

ـ "ستكون هناك" قالت؛ـ "قبلي حتماً". أكدت؛ ـ "وسأجيء وأفتح باب سيارتك وأدخل". ضحكت. "فتنطلق". هنا استحال ضحكها إلى همس كالفحيح.. كاللهاث بعد الشبع ـ "وحينها ستكون الدنيا ملك يديك".

صوتها مشحون بكهرباء صامتة يجتثني من ليل الزنازين والهوام وشرك الأسئلة المنهالة مع الشتائم، ومع الصفعات والركلات والبصاق.. دفء صوتها وسلام شاسع.. نكاية بتلك الظلمة المزحومة بالصقيع والوجع.. رجاء صوتها.

ـ سيكون البدء حريقاً.

ـ وماذا بعد الحريق؟.

ماذا قالت؟ لست متأكداً.. لعلها قالت "الشتاء" أو "الشقاء"، أو تراها قالت "الشفاء" لعلها تلفظت بكلمة أخرى لم أستطع التقاطها.. همهمة منغمة وانقطع الخط، فشهقت.

أية نبرة واثقة رصينة جسور تلك التي تمتلك؟ كيف سيدتي بعد هذا المرض الطويل الغامض، الاعتباطي،

العسير، المرهق، الفاجع.. كيف؟ وبدأت أدرك "كيف؟!".

ستقبل،في أصابعها أوار اللهفة، والوعد الموصول بالنعيم.. ستفتح باب السيارة لتزيح البرد والوحشة والارتياب.

هل ستأتي؟

.5.

هي مجمرة الحنين في ليل المطر والانكفاء، وإن أتت سأخرج من جلدي الفار من عرس السياط.. جلدي المتقرن الذي ملَّ الرماد والسخام وعطن الزوايا المعتمة..

قلت لها: ـ أنقذيني من ذاكرتي.. ذاكرتي أرض خراب.

اعترضت: ـ لا .. بين الذاكرة والأحلام أنت.

قلت: بين الذاكرة والأحلام ليس إلاّ التيه.

قالت : راوغ الموت لتكون .. بين ذاكرة حاضرة وأحلام تمور ينبغي أن تكون. وإلاّ ما جدوى مجيئي؟.

.6.

كالزقزقة كان صوت الباب وهو يفتح.. كالسحر يقرّبك من حالة الموت قبل أن يرتد بك. وشعرت أن روحي تخطف وتلوب.

التفت.ياه.. كدت أصرخ.. من تكون هذه المرأة الضاجة بالألوان والغرور!؟.. بإصبعها أشارت إلى الأمام بعد أن جلست باسترخاء إلى جانبي.. يا لوقاحتها.. كل ما فيها فائر واستفزازي ومريب

ـ كيف تجرؤ على البقاء هنا؟ عود ثقاب مهمل يمكن أن تفجر محطة الوقود.

ـ من أنت؟

ـ عجباً.. شهور طويلة وأنت لا تكف عن المطاردة، والآن تقول..

ـ لستِ هي .؟

ـ لستُ من؟

ـ تلك التي وعدتْ أن أنتظرها قرب محطة الوقود.

ـ أحمق .. سر

ثم صارخة: ـ سر.. سر.

راحت تحثني .. ما كان علي إلاّ أن أرضخ.. عاطت السيارة وهي تثب. كما لو أنني هارب من الوحشة والبرد والأسئلة إلى اللامتعين المحجوب، المجهول.. إلى ما وراء الآن، وهنا.. بعد ساعة أو حين من الدهر.. هناك، في الضباب والدوامة والجرح.

قالت: مازلت كما عهدتك تستجير من الوهم بوهم آخر.

ـ أتعرفينني سيدتي؟

الظلام محتقن بالزمهرير، والرماد على لساني.. في حلقومي.. في الشرايين مخلوط بدمي.. رماد ماسخ، فج بارد، وخانق. استدرت بالسيارة حول ميدان خال من المارة والسيارات وتوقفت.. أبصرت كتلة مرعبة من نار تتمايل مثل درويش هائم.

ـ ما تلك !؟

ـ محطة الوقود.

ـ من أحرقها؟

ـ سيدة وهمك.

ـ أخبريني.. من أنت؟

ـ ها أنت مصر على التنكر لذاكرتك.

فكرت أنني ربما كنت ضحية مقلب أعدته لي المرأة / الحلم ـ امرأتي ـ مع صديقة لها .. صحت بها:

ـ أرجوك أخرجي.

هزت رأسها، ثم راحت تقهقه.. تطاير رذاذ السخرية.. الرذاذ رشق وجهي.. تولاني غضب هادر.. رفعت يدي لأصفعها.. تراجعت برشاقة.. فتحت الباب وانزلقت إلى الخارج وهي تضحك.. وبقي صدى ضحكتها يتردد بعد أن أخفاها منعطف أول شارعٍ فرعي.

وألفيت كفي يتقلص في الفراغ ومفاصلي تتشنج.. تهالك جذعي على المقود وارتطمت جبهتي بزر المنبه فانبعث صوت حاد.

ـ 7 ـ

بعد لحظات، أو بعد زمن طويل ـ لست متيقناً ـ سمعت نقرات أصابع على زجاج النافذة الجانبية.. التفت برأس خاو... رأيت امرأة منحنية تومئ لي كي أفتح الباب، ووراءها كانت محطة الوقود عامرة كما عهدتها، وأنا في مكاني حيث أنتظر امرأتي.

كيف عدت؟ من أعادني ؟.. حركت أصبعي بإشارة رفض واعتقدت أنها من بنات الهوى.. لم ترتدع..

فتحت الباب ودلفت إلى الداخل.

كان شعرها أحمر صارخاً، وطلعتها جامدة لا تخلو من قبح.

ـ أنطلق.

ـ من أنتِ.

ـ ستعرف في ما بعد..انطلق.
ـ لماذا ؟
ـ محطة الوقود قد تحترق.
قلت في سري (إنها مجنونة).. همست ببرود:
ـ أنت المجنون .. انطلق.
تذكرت المسدس الذي أخبئه في درج سيارتي.. خطر لي أن أسحبه وأهددها به لتغادر.. ضحكت بتهكم .. ضحكت طويلاً فلم أفعل.
انطلقت، وبعد قليل سمعت دوياً هائلاً، ورأيت قطعاً نارية تتطاير وتسقط في أماكن مختلفة من المدينة... قالت:
ـ ألم أقل لك ؟
أوقفت السيارة وصحت بوجهها:
ـ أنت التي أحرقت المدينة.
وهممت أن أمسكها من ياقتها فتهاوت يدي في الفراغ..
لا أدري كيف اختفت المرأة؟

ـ8ـ

نظرت حولي.. أمسى الشارع خالياً، وتحت أعمدة النور الشبحية كانت الكلاب والقطط وحدها تخطر.. المدينة نائمة، ومحطة الوقود غارقة في الظلام.. أدركت أن امرأتي لابد أن تكون قد أخلفت وعدها تاركة إياي للبرد والكوابيس. ومن يدري فلعلني لم أستوعب جيداً كلماتها التي بها حددت الزمان أو المكان، أو الزمان والمكان معاً.. حاولت أن أتذكر تقاطيع وجهها.. لون عينيها.. تسريحة شعرها فلم أفلح.. كانت هي الأخرى قد إنسلت من سراديب ذاكرتي وتبددت .. نظرت إلى ساعتي.. كان الوقت قد

تجـاوز منتصـف الليـل.. أدرت مفتـاح التشـغيل لأغـادر المكان وأنا محبط وبردان وعلى حافة المرض والبكاء.

تهيأ لي أن امرأة تجلس إلى جانبي بصمت.. لم أجرؤ علـى النظـر إليهـا، وتسـلطت علـى ذهنـي فكـرة أن محطـة الوقـود ستنفجر لتقذف سيارتي في الفضـاء.. لثوان صـار هـذا الأمـر حدسـاً مسـتحوذاً، ملحّـاً فوجدتني أضـغط بقدمي علـى دواسـة البنـزين بقـوة، وأجعـل السيارة تسـرع بـي فـي الطريق المعتم.. طريق الهروب.

راحـت سـيارتي تـدور حـول محطـة الوقـود.. صـار الشـارع دائـرة مغلقـة حـول بنائهـا الفسـيح المضـاء.. ربمـا أضـيء تـواً، والمـرأة التـي معـي تضـحك منـي مسـتخفة ، وباحتقار تمط شفتيها.

بيـد مرتعشـة عصـبية فتحـت الـدرج وقبضـت علـى المسدس وصوبته نحوها وضغطت على الزناد.

لم تكن ثمة إمرأة، ولكن محطـة الوقود إنفجرت بدوي هائل، وزحفت النيران، تتلوى وتئز مثل ثعابين مستفزة، وأنا في فلكها الحارق المميت أدور.. وأدور.

(1996)

ﷻﷻ

ليلة الغريب

المقهى فوضى في الضوء الشاحب.. لغط ودخان وبشر غارقون.. كلام في الرياضة، كلام في السياسة، كلام في الجنس.. وكلام هراء.

فرقعات وألعاب.. صيحات وضحكات، وحكايات نميمة.. أما هو ـ عبد الله ـ فوحيد، لا أحد يحفل به على الرغم من أنه ـ ومنذ وقت طويل ـ يجيء قبل الجميع، ويغادر بعد الجميع، وكلما أراد الانغمار مع الآخرين في سجالاتهم أشاحوا بوجوههم عنه أو قاطعوه وإذ ذاك ينكفئ صامتاً ليقضي بقية الليل مثل حيوان جريح يراوغ عبثاً ألمه في صحراء مدلهمة خالية.

منذ أسبوع صار رجل غريب يلفت انتباه عبد الله .. رجل وحيد مثله .. يدخل ويقبع في الزاوية البعيدة ـ الزاوية ذاتها كل ليلة ـ كأنه قطعة زائدة أو شيء كان قد فقد ضرورته.. عبد الله لم يستطع أن يحدد ملامحه فهو في الطرف الآخر وبينهما الدخان الخانق.. أسبوع ولم يلحظه أحد سوى عبد الله وربما كان الآخرون يرونه ويتجاهلونه..

كل ليلة ينتبذ ذلك الركن، بنظرات زائغة، وقدح الشاي يظل أمامه كما هو لا يرتشف منه شيئاً، فعبد الله

يراقبه وهذه الليلة قرر أن يخرق عزلته ويشاركه أريكته.

ـ السلام عليك.

غرغر الغريب بكلمات مبهمة

ـ المقهى لا يحتمل .. بل هو الدخان.

هز الغريب رأسه موافقاً، أو ربما امتعاضاً ولم ينبس.

ـ لا أدري لم نحن هنا؟ كأن مغناطيساً يؤثر في إرادتنا ويسحبنا إلى هنا.

أسبل الغريب أجفانه ولم يعلق بشيء.

ما أدهش عبد الله أن الغريب يقاربه في العمر، ولعلهما ولدا في السنة ذاتها. وأنه يشبهه أيضاً سوى أن الغريب قد نمّا لحيته وشذبها.

حاول عبد الله أن يتذكر كيف هي صورته ـ ملامحه وتقاطيعه ـ فغام وجهه أمام بصيرته الداخلية.. من العجيب أن ينسى الإنسان شكله (منذ متى لم أنظر في مرآة.. آه منذ زمن بعيد .. ربما كان أحد أقربائي، أو هو أخي من أبي .. أبي كان يسافر شمالاً وجنوباً ناثراً بذرته في كل مكان. ولم يعد قط من سفرته الأخيرة قبل ربع قرن.. قيل أنه مات غرقاً.. قيل إنه قتل.. قيل إنه عبر الحدود ومضى إلى المجهول... قيل إنه استقر في قرية نائية على كتف جبل وتزوج هناك... من يدري).

ما كان عبد الله ـ في هذه الساعة ـ يرغب بالتفكير في مصير أبيه.. قال:

ـ الجميع يتكلمون.. الجميع عدانا.. كلامهم كذب ونفاق وسفاهة.

لم ينطق الغريب كما أمل عبد الله الذي فكر أن الرجل ربما كان يتوجس منه ...سأله:

ـ وجودي هل يزعجك ؟

بإيمـاءة خفيفـة مـن رأسـه نفـى الغريـب أن يكـون منزعجاً.

ـ إذن يمكننا أن نتكلم .. كلانا وحيد.

وافقه الغريب بنظرة ساهمة، أو هكذا تهيأ الأمر لعبد الله الذي أردف:

ــ وأنـا غريـب مثلـك علـى الـرغم مـن أننـي أعـرفهم /هؤلاء/ منذ أربعين سنة .

استرسل الغريب بلعبة الاستغراق.

ـ لم أتزوج قط.. يخيل لي أنك مثلي لم تلق بعد المرأة المناسبة.

بـدأ الغريـب غـائراً فـي زمـان آخـر ومكـان آخرـ فـي شغل ـ عما يقوله عبد الله

ـ كأنك صنوي.. كلانا ضائعان.

بقـي الغريـب صـامتاً.. سـادراً فـي ملكوتـه الأخـرس.. فكر عبد الله بوسيلة، غير الكلام، يستدرج بها الغريب إلـى مسامرته..استل علبة سجائره وقدم لـه سيجارة.

ـ تفضل.

حرك الغريب يده رافضاً.

ــ حسـناً تفعـل.. الـدخان مـرض.. لا أدري لـم نـدمن المرض؟

أشـعل عبـد الله عـود ثقـاب وقربـه من رأس سـيجارته.. انطفـأ العـود.. حـاول أن يشـعل عـوداً آخـر إلاّ أن علبـة الكبريت وقعت من يده..انحني ليلتقطها فوجدها تعوم فـي بركة ماء صغيرة تحت الأريكة فأحس بالخيبة.

ـ كأن الشيطان فعل ذلك.

رفـع رأسـه مخاطبـاً الغريـب غيـر أنـه تسـمر ذاهـلاً فـي قعدته، فالغريب كان قد اختفى.

تلفت عبد الله يبحث عن قرينه بعينيه في أرجاء المقهى لكنه لم يكن هناك.. خاطب شابين كانا منشغلين بحديث عاصف

ـ أين الرجل الذي كان جالساً هنا ؟

ـ رجل؟..أي رجل؟!!

ـ الغريب الذي كان جالساً هنا قبل قليل.

أطلق الشابان ضحكة مدوية وواصلا كلامهما دون أن يعيرا لما قاله عبد الله اهتماماً.

ـ لقد كان هنا قبل لحظات.. كأنه ذاب في الدخان.

حدق فيه شاب كان جالساً في الجهة الثانية.

ـ عمَّ تتكلم؟

اغتبط عبد الله لأن ثمة من هو على استعداد لسماعه في هذا المقهى.

ـ أسال عن الرجل الذي كان هنا.. الغريب.

ـ لم يكن هنا رجل غريب.

ـ بل كان.

ـ أنت تتصور أشياء، وتهذي طوال الوقت.

ـ بل أنتم النائمون.

صاح غاضباً فانتهره الشاب:

ـ أنت تتوهم كعادتك. وهب أنه كان هنا وغادر.. ماذا تريد منه؟

ـ أي شيء.. كل شيء.

قام عبد الله وانسل من كثافة الدخان والضجيج وخرج إلى الشارع.. كان المطر يتساقط، وتحت أعمدة النور

أبصر شبحاً يبتعد، ويتلاشى، فحث خطاه ليلحق به.

(1995)

ꙮ

خيول.. خيول

.1.

في حصار الاخضرار الخفيف الخانق لضوء النيون يتحرك إبهامي ـ بالتناغم مع بقية الأصابع ـ كما لو أنه يرتجف على الحافات الحادة للمستطيلات المرزومة المتلاصقة بعناية آلية.

يهمي الرذاذ الأخضر، والأرقام تتسابق في رأسي، ثم على الورقة الموضوعة أمامي.

كل شيء يركض نحو الذروة المجنونة.. الرذاذ الأخضر والأرقام الفلكية والخيول الراكضة في كل اتجاه.

.2.

أناط بي مهمة عد النقود واكتشاف الزائف منها.. خصص لي غرفة صغيرة وخانقة في نهاية متجره الكبير.

قال: عملك خطير وعليك أن تكون منتبهاً ودقيقاً وسريعاً.

سلمني الكدس الأول (ثمانون ألف دينار من فئة

الخمسة والعشرين). شعرت بالإرتباك وأنا أحملق في الرزم الخضر الأنيقة على مكتبي.

قال: هيا، لا تكن بارداً.. سآتيك بعد دقائق بكمية أخرى.. عملاؤنا لا يعدون.

في اليوم الأول لامست أصابعي ربع مليون دينار.

قال في آخرة النهار:

ـ ستزداد خبرة بمرور الوقت.. لم أرد أن أثقل عليك في يوم عملك الأول.

وناولني ورقة خضراء واحدة.. أفردتها ونظرت إلى الخيول الثلاثة وهي تجري برشاقة في المرج الأخضر.

خرجت إلى الشارع .. الدنيا يقوّضها ضباب أخضر ودوار وأنا عطشان.. يدي في جيبي.. أصابعي قابضة على الورقة الخضراء المدعوكة.

وبغتة تهيأ لي أن الخيول الثلاثة غادرت مرجها الأخضر في عاصفة من الصهيل.

ـ 3 ـ

يوم آخر.. ليلة أخرى.

ظلمة خضراء كامدة وأزقة غريبة تسحبني إلى متاهاتها.. بعضها يسلمني إلى بعضها الآخر، أو هو العضو الآلي الغامض، القابع في مكان ما من حجيرات الدماغ يتولى المهمة؟

زقاق بعد آخر.. ينبعث الصهيل من كل ركن.. كأنني أمشي بين اسطبلات سجنت فيها آلاف الخيول الغاضبة.

قال لي: للنقود رائحة مدوخة وعليك أن تنتبه.

قال لي: شيئاً فشيئاً ستعشقها وعندئذ ستأتيك طائعة مبذولة.

قال لي: إنها لا ترضخ إلاّ لنوع معين من العشاق أولئك الذين اكتشفوا أسرارها.

وراح يضحك بصخب، ضحكة منغمة متكسرة، حادة، ممتدة، لا تنقطع.. صوت هائل يتدفق من حنجرة قوية، مدهونة، يلاحق سيلاً من الصهيل ويمتزج به.. الضحك والصهيل إذ يمتزجان يعصفان بي فأتدحرج في فضاء من الأخضر المحتقن الجاثم على الأشياء.

.4.

قال لي: الدنيا مسالك.. أنت اخترت مسلكاً وأنا اخترت مسلكاً آخر، وها نحن ذا نلتقي في هذه الحجرة من أجل أن نعيش.

قال لي: علينا أن نعمل ساعات إضافية.. إنها فرصة قد لا تتكرر أبداً.

انحسر الليل والنهار وتلاشيا.. صار الزمن امتداداً أخضر بلا علامات وزوبعة خضراء. ونحن ـ أنا وهو ـ مشدودان إلى هذه البقعة ندور، وذاك قدرنا حول هذا المحور، غير أن مرتفعات عصية من الرزم الخضر تفصلنا.. هوّة الأسئلة والمفترق المخيف والساعات الغريبة التي تشبه ظلام الحلم.

قلت في سرّي: أي جحيم تلك المسافة بيني وبينك.

وكنت أخشى أن يقرأ ذلك في عيني.

الأرض تميد بي.. الجدران العالية، والهياكل تتمايل كما لو أنها خائضة في رقصة وحشية، والصهيل القاسي يحفر في الرأس.. أضغط صدغي بأصابعي في محاولة

لإعادة التوازن، غير أن الصهيل يشتد.. الألم الجامح يشتعل في عيني.. يفتح فضاء خلف الجبين ليرسّب إحساساً بالغثيان ينحدر أسفل فأسفل، ثم تقدم آلاف الخيول من الأرجاء كافة .. تلج عبر ممرات المملكة العصبية إلى القاع المظلم البعيد.. آلاف الخيول بحوافر معدنية لها رنين نازف تستوطنني.. تحيل زمني إلى تيه وصدى.

صهيل متصل يشقق رأسي.. خيول أخرى تجيء.. يختلط صهيلها بهدير السيارات ودوي أبواقها ولغط المارة.. يبدو أن لا أحد يسمع هذه الأصوات المهاجمة سواي.. جسدي يصطدم بالأجساد.. لا أرى منهم سوى أشياء كالحة تتحرك.. لا ألوان، كأنه حلم قاتم.. تمهيد لكابوس.. خطواتي تتعثر.. أنا على الرصيف أو في وسط الشارع.. بين السيارات أو في نفق يعج بالناس.. ناس بلغة غريبة.. لا أفقه مما يقولون كلمة واحدة.. مجرد أصوات كالنقيق.. كأنهم يشتمون .. وأرى.. ماذا أرى؟.. العالم الآن، لا شيء سوى عماء أخضر وصهيل.

.5.

اقتربت من البيت.. فاجأني هدوء عميق مفزع ضيّق علي الخناق.. كأنني أصبت بالصمم. وكان التعب مثل أخطبوط رخو يقبض على مفاصلي ويحتوي ذهني.

على عتبة البيت كدت أسقط.. وقفت وأغمضت عيني.. خيل لي أنني أسمع صهيلاً بعيداً، منذراً راح يخترق كتلة الهدوء الثقيلة حولي.. شعرت بالجزع.. دلفت إلى البيت وأنا خائف.

.6.

بعد الظهر جاءني بعمارات شاهقة من الرزم.

همس: إنها ضربة الحظ القاضية.
وجلس قبالتي:
ـ سأساعدك:
وبدأنا .. قلت:
ـ الحر خانق كأن لا هواء.
قال: تحمل.. أجرك لهذا اليوم مائة دينار.

وجدتني سريعاً.. أسرع من أية ساعة مضت مذ استلمت وظيفتي كأنني ذراع بمفاصل معقدة في ماكنة هائلة. وراحت الرزم تعبر من الشمال إلى اليمين والأرقام المخيفة تتصاعد على ظهر الورقة التي أضعها أمامي، والمروحة تهدر.. هديرها الشيطاني محض صوت ليس إلاّ، وكلما انتفخت الأرقام على الورقة تضخم الصوت وشح الهواء.

العرق يعبر التضاريس المنتفخة لرقبته الوردية في مجار لماعة تختفي وراء ياقته المتسخة.. قال لي ذات مرة.
ـ من يعمل ليل نهار، لن يجد وقتاً حتى للنظافة.

العرق يدب في جسدي.. قطراته كأنها حشرات دقيقة.. أدعك قميصي لأسحقها على صدري وبطني فتكر من جديد. أحسست بالجفاف.. كرعت كأساً من الماء.. لم يكن بارداً.. كان مراً وخرجت الحشرات، كانت كالحشرات، تدب على جسدي فجعلت أدعكها من دون جدوى.

هواء المروحة لم يمنع قطرة عرق حامضة تسللت إلى عيني.. كانت جمرة صغيرة تبث الألم.. أغلقت جفوني بقوة.. كنت على حافة الهاوية بساقين واهنتين .. تناهى إلي صهيل فاجع.. رأيت النار تشب في إسطبل مقفل والخيول المذعورة تحاول عبثاً تحطيم النوافذ.. لم يكن ثمة باب.
ثم، باغتني الرجل قائلاً:

ـ هذا مليون آخر.

وألقى كيساً عتيقاً متسخاً من الخام الأبيض أمامي وخرج.. أخفيت وجهي بكفي وأنا على وشك البكاء.

بصعوبة رفعت جذعي، وكنت أترنح حين اجتزت باب المتجر.. صاح بي، فشتمته.

ـ 7 ـ

في الشارع.. بين بشر كالدمى هب الصهيل عاتياً، كاسحاً مثل ريح لا معنى لها، ولا جدوى من عنفها.

هكذا فقط، دوامة هادرة اجتاحت المدينة من أقصاها إلى أقصاها، ووقع سنابك راح يدوي في المساء الكسيح.

تكاثف الضباب الأخضر، الغامق، المعتم وانكشفت رؤيا الكابوس.. ملايين الخيول صارت تغادر باب المتجر الذي هربت منه، وملايين أخرى أعقبتها من أبواب المتاجر المفتوحة على الشارع كالأشداق.. ملايين الخيول المخبولة تدوس المارة المذهولين، الخائضين في ذعر الصراخ، وتسحق كل شيء.

(1993)

ꕥꕥ

في أقصى الفردوس

احتمال غير مؤكد (1)

بمحاذاة السياج الشجري نقّل خطواته.. بدا حذراً كما لو أنه كان يتوقع أمراً ما، لا عهد لـه به، سيحصل.

الرحاب النادر لأزهار الجهنمية، والرذاذ الشذي للرازقي والآس بأناقته المشذبة الراسخة.. هذه الأشياء كلها غمرته بحزن نائح، وجعلته يرمي سيجارته أرضاً ويدوسها، ويركل حصاة صغيرة كانت على طريقه. وفي ثنية ما، جد غائرة، من ثنيات روحه، تألق ضوء مؤسٍ باهر لجزء من الثانية لمّا أنَّ الباب ـ باب الحديقة الخشبي ـ وهو يدفعه ليدلف.. ثم انطفأ .. انطفأ الضوء، وسبحت ثنيات الروح في قتامة موحشة، فألفى نفسه على فراش كثيف من العشب، تحاصره سكينة ساعة العصر فحدسَ؛ أنْ لا أحد دخل هذه الحديقة منذ زمن طويل.

مشى نحو المقعد الأثيرـ مقعدهما ـ الذي يكاد يكون ذاكرة أنبل أسرارهما، يوم كانا يحتميان، من أذى العالم، بسور من أغصان الليمون، ويباركان الحياة بالقصائد والقبل والضحكات.

أحنى رأسه ليتحاشى فرعاً نافراً كان يعيقه حتماً، فتنملت، على حين فجأة، أطرافه، وأمسك به ما يشبه الرعب حين أبصر امرأة، بيدها ضلع مكسور من أضلاع

المقعد ـ مقعدهما ـ وقد جلست عليه.

أفكار مضطربة تسارعت في رأسه الذي بقي على انحناءته (ـ من تكون هذه المرأة؟ ولماذا جاءت إلى هنا؟ ولماذا كسرت ضلع المقعد؟)..ووجد نفسه أمام خيارين؛ إما أن يتراجع ويترك المرأة لشأنها أو أن يقترب ليواجهها ولا يدري ما الذي أرغمه على خيار الاقتراب.

حدقت فيه وقالت:

ـ هكذا إذن، بعد أن تأخرت طويلاً، وجعلتني أحطم هذا المقعد.. ولو لم تأت..

ماذا ؟!.

ـ اجلس.

أغمض عينيه وفتحهما.. تفرس في وجهها، وتأكد من أنه لم ير هذا الوجه من قبل.. تلفت حواليه، وشاهد استبداد نور النهار، والفوضى الودودة للألوان، وفكر في ما إذا كان يحلم الآن، أم أنه يحيا لحظات صحو حقيقية؟ غير أنه ظل يتساءل في دخيلته؛ ((من تكون هذه المرأة، وهل تعرفه حقاً؟ أم أنها مجنونة؟))

قالت له: تبدو مثل مجنون.

قالت له: لِمَ لمْ تحلق شعر رأسك ولحيتك؟

قالت له: وما هذه الأسمال التي ترتديها؟

قالت له: وأين هي حقيبة أوراقك التي لم تكن تفارقك؟

قالت له: والقصيدة.. قصيدتك الأخيرة.. هل أتممتها؟

وبقي هو ساكتاً، لا ينبس بكلمة.

أحس بصدع يشطره في الأعماق، ويسلِّمه لحالة من فقدان الوعي.. ومرَّ وقت غير قصير قبل أن يهز رأسه

ويتمتم:

من أنت؟. من تكونين؟

وقفت، وفغرت فاها، وارتسم على محياها جمود مفزع، فتهيأ لـه أنها ستصفعه، أو ستضربه بضلع المقعد المكسور على رأسه.

ـ أنا لا أعرفك سيدتي.

وثبت عليه مثل لبوة فأمسك بها.

هنا حدث شيء محير. فبعد أن استيقظ يحيط به الظلام ويمضه البرد والألم والجوع، رأى أن من المستحيل أنْ يتيقن من حقيقة ما جرى.

كان يشعر بالخوف، وبالرغبة في الابتعاد.

احتمال غير مؤكد (2)

كسرت المرأة غصن شجرة ليمون لما سمعت وقع أقدام محترسة تقترب، وتساءلت في سرّها، (مَنْ من حقه دخول هذا المكان بعد رحيله؟ من بإمكانه أن يجرؤ على اقتحام هذا المحراب الذي صنعاه معاً طوال سنوات؟).

حدقت فيه.. كان وجهه ملتبساً، تمنحه أقراص الضوء المتلاعبة بهاءً ووحشية.

قالت: ارجع.

قال: ينبغي أن تفهمي.

قالت: من تكون أيها الأبله.

قال: تبدين مثل مجنونة.

صاحت: أنت المجنون.

قال: أنظري إلى أسمالك هذه، وشعرك الذي لم تمشطيه.. أنا أفهم....

قالت: أخرج، قبل أن أجعل دمك يسيل.

قال: لقد جئت من أجلك.. أنا نادم.

قالت: من أنت؟

وانقضت عليه وتشابكا.

لا شك أن شيئاً ما تزحزح عن موضعه، وتغيرت الخارطة.. خارطة وجودهما الخفية، فغابت عن العالم لحين من الدهر، لكنها عندما استفاقت على أنين الأرض الباردة، وخشخشات النجوم وهي تغمزها من بين أوراق الليمون، كانت مفعمة بالغبطة، والرغبة في البكاء، تشعر في أقصى روحها بحضور الفردوس.. الفردوس الساحر والعصي.. الفردوس المحال.

تستحضر، الآونة، كسراً من أنفاس عفنة، وهيجان بهيج.. شيئاً آثماً وقدسياً عنيفاً وعميقاً وناعماً ومباركاً، ومنفتحاً على فسحة مظللة، معتمة، وهو بعيد بُعداً لا سبيل للوصل إليه، وقريب، غاية في القرب، حتى لا يمكن رؤيته البتة.

تتمددُ على العشب، وتقرر البقاء.

احتمال من الجائز تأكيده:

نادته : نور

ركض نور محاذاة السياج الشجري.. رأته جزءاً من رونق أزهار الجهنمية، وشذا الرازقي، وأناقة الآس وحين كررت النداء:

- نور.

عثر نور بحصاة صغيرة وسقط ليجد نفسه فجأة، بين ذراعي رجل، غمرته أنفاسه الحارة فبدا قلقاً غير أنه لم يعترض. أما هي فوقفت بارتباك ظاهر تحدج الرجل، ولا

تستطيع الكلام، حتى إذا نطقت أخيراً، متلعثمة.

ـ كنت أعرف أنك ستجيء.

ضحك بصخب، ثم طاف في عينيه حزن صافٍ وقال:

ـ أرجو أن يكون حدسك في محلهِ.

قالت: ـ إنك الآن أمامي.. وبيننا نور.

وكان نور ما يزال على ذراعيه، مستكيناً، حائراً، فقال بنبرة مشروخة، وهو يضع الطفل أرضاً.

ـ هذا، إذا كنت أنا.. هذا الواقف أمامك.

(2000)

ﭏﭐ

الفهرست

* سعد محمد رحيم

من مواليد العراق 1957.

*** الإصدارات:**

- **رصاص العمق الهادئ** - *رواية /1985.*
- **الصعود إلى برج الجوزاء** - *قصص /1989 - فازت بالجائزة الثانية في مسابقة وزارة الثقافة والإعلام في العراق.*
- **ظل التوت الأحمر** - *قصص /1993 - فازت بالجائزة الثالثة في مسابقة وزارة الثقافة والإعلام في العراق.*
- **هي والبحر** / *قصص / 2000.*
- **غسق الكراكي** / *رواية/2000 - فازت بجائزة الإبداع الروائي في العراق لسنة 2000.*
- **المحطات القصية** - *قصص/ 2004 .*

***